صلاح الدين يوسف بن أيوب

من

طبقات الشافعية الكبرى

لتاج الدين السبكي

obeikandl.com

obeikandl.com

- ١٠٧٤٩ -

يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان الدويني الأصل، التكريتي المولد

ودوين بضم الدال وكسر الواو بعدها آخر الحروف ساكنة ثم نون، بطرف أذربيجان، من جهة أران أهلها أكراد.

وهو السلطان الملك الناصر، التقي النقي، العالم الذكي، العادل الزكي، فاتح الفتوح، بركة أهل زمانه، صلاح الدين أبي المظفر، ابن الأمير الملك الأفضل نجم الدين.

ولد سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، بتكريت، إذ أبوه واليها.

وسمع الحديث من الحافظ أبي طاهر السلفي، وأبي الطاهر بن عوف، والشيخ قطب الدين النيسابوري، وعبد الله بن بري النحوي، وجماعة.

روى عنه يونس بن محمد الفارقي، والعماد الكاتب، وغيرهما.

وكان فقيها، يقال: إنه كان يحفظ القرآن و«التنبيه» في الفقه و«الحماسة» في الشعر.

وملك البلاد، ودانت له العباد، وأحبه الخلق، ونصر الإسلام، وغزا الفرنج وكسرهم مرات، وفتح المدن الكبار، وأقام في السلطنة أربعا وعشرين سنة، يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله.

وكان ملكا عظيما شجاعا مهيبا عادلا، يملأ العيون روعه والقلوب محبة، قريبا بعيدا، عابدا قانتا لله، لاتأخذه بالله لومة لائم، مجلسه يجمع الفضلاء والفقراء، وأصحابه كأنما هم على قلب رجل واحد، محبة فيه واعتقادا وطواعية.

ولقد صنف في سيرته القاضي ابن شداد كتابا مستقلا، وصنف ابن واصل كتابا في سيرته وسيرة أهل بيته، وصنف أبو شامة في سيرته وسيرة الملك نور الدين، وصنف العماد الكاتب في فتوحاته وصنف آخرون في شأنه، وماعسى الذي نورده بعد ماأطال هؤلاء، ثم اعترفوا بالقصور والتقصير، في حق هذا السيد الكبير، ولنأت بما فيه مقنع وبلاغ.

obeikandl.com

- ١٠٧٥١ -

ذكر ابتداء أمره قبل ملكه

قدم به أبوه إلى دمشق وهو رضيع، فناب أبوه ببعلبك لما أخذها أتابك زنكي في سنة ثلاث وثلاثين، وقيل: إن أباه خرج من تكريت في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين فتطيروا به، وقال بعضهم: لعل فيه الخيرة وأنتم لاتعلمون، فكان كذلك، ثم اتصل والده نجم الدين أيوب بالملك نور الدين الشهيد، خدمه هو وولده صلاح الدين هذا خدمة بالغة، وكان أسد الدين شيركوه أخو نجم الدين عند نور الدين قبلهما، وكان أرفع عنده منهما منزلة، فإنه كان مقدم جيوشه، فلما تخلخل حال المصريين الفاطميين، وضعفوا عن مقاواة الفرنج، وكادت الفرنج تملك القاهرة، وملكوا بلبيس، وصيروا لهم بالقاهرة شحنة يحكم، وضعف أمر الإسلام بديار مصر جدا، وكان الفاطميون قد بلغوا في سوء السيرة إلى الحد المعروف، وأفتى علماء الاسلام بإباحة دمائهم، ووجوب قتالهم، لما هم عليه من الزندقة والإلحاد، ووصل شاور وزير العاضد خليفة مصر إلى دمشق إلى نور الدين يستنجده، ثم عاد إلى مصر، فجهز نور الدين إليهم عسكرا أمر عليهم أسد الدين شيركوه، وجهز معه أخاه نجم الدين، وابن أخيه صلاح الدين، فدخلوا مصر آمنين، وقتلوا شاور، وولي شيركوه وزارة الخليفة العاضد، إلى أن مات بعد نيف وسبعين يوما، فولي بعده صلاح الدين الوزارة، وهي في ذلك الوقت كالسلطنة، فاستقل بسلطنة مصر، ولقب بالملك الناصر، لقبه بذلك الخليفة العاضد، في سنة أربع وستين، وصار للعاضد معه الاسم فقط، وصار صلاح الدين هو السلطان، فاستمر إلى أول سنة سبع وستين، فقطع صلاح الدين الخطبة للعاضد، وخطب للمستضيء خليفة بغداد، واستقل بالملك، ومات العاضد، وقبض صلاح الدين على الفاطميين بأسرهم، واستولى على القصر وخزائنه، وهي أموال لاتحصى ولاتعرف لملك قبل الفاطميين.

وكان صلاح الدين من حين اتصل بخدمة نور الدين قد طلق

اللذات، وكان محببا إليه خفيفا على قلبه، ولما افتتح مع عمه مصر ثم استقل بالوزارة عظمت سطوته، واتفقت له وقعة مع السودان سنة بضع وستين، وكانوا نحو مئتي ألف، فنصر عليهم وقتل أكثرهم، وهرب الباقون، وابتنى سور مصر والقاهرة على يد قراقوش، واستفحل أمره جدا إلى أن أباد بيت الفاطميين وأهان الرفض وغيرهم من بدع المبتدعين.

ذكر يسير من أخباره بعد استقلاله بالسلطنة وموت العاضد

وقد كان لما قبض على الفاطميين أخذ في نصرة السنة وإشاعة الحق وإهانة المبتدعة، والقبض على الفاطمية والانتقام من الروافض، وكانوا بمصر كثيرين، وكان من أول فتوحاته: برقة ونفوسة، افتتحها على يد أخيه شمس الدولة، في سنة ثمان وستين، ثم في سنة تسع افتتح اليمن، وقبض على المتغلب عليها عبد النبي بن مهدي، ثم في سنة سبعين سار من مصر إلى دمشق بعد وفاة نور الدين، مظهرا أنه يقيم نفسه أتابكا لولد نور الدين، لكونه صبيا، فدخلها يلاطفه، ونزل بالبلد بدار أبيه المعروفة بدار العقيقي التي هي اليوم المدرسة الظاهرية، ثم تسلم القلعة وصعد إليها وأخرج الصبي من الملك، وصار هو سلطان مصر والشام واليمن والحجاز ثم سار قاصدا حماة وحمص، ولم يشتغل بأخذ قلعتها ثم نازل حلب وهي الوقعة الأولى، وفيها سير السلطان غازي بن مودود أخاه عز الدين مسعودا في جيش كبير لحربه، وكان بها ولد نور الدين فترحل عن حلب ونزل على قلعة حمص فأخذها وهو مع ذلك يظهر حسن المقاصد، وأنه قاصد إعزاز الدين وإنقاذ البلاد من الفرنج، وتسهيل أمور المسلمين.

وجاء عز الدين مسعود فأخذ معه عسكر حلب، وصار إلى قرون حماة، وأخذ صلاح الدين يراسلهم دواما للصلح، كيلا يقع سيف بين

المسلمين، وهم يراسلونه، وهم يظنون أنه يطلب الصلح لضعفه عنهم، وهم لايعرفون ماعليه الرجل من حسن النية، وحقق عندهم ماظنوه كثرة عساكرهم وقلة من كان مع صلاح الدين من العسكر في ذلك الوقت، فلما أبوا إلا المشاجرة، معتقدين أن المصاف معهم يحصل غرضهم، وأعجبتهم كثرتهم، لاقاهم صلاح الدين، فكانت الهزيمة عليهم، وأسر صلاح الدين منهم خلقا، ثم ساق وراءهم، ونزل على حلب ثانيا فصالحوه وأعطوه المعرة ، وكفر طاب، وبارين.

وجاء صاحب الموصل غازي، فحاصر أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار، لكونه انتمى إلى صلاح الدين، ثم صالحه لما بلغ غازي كسر أخيه مسعود، ونزل بنصيبين، وجمع العساكر، وأنفق الأموال وعبر الفرات وقدم حلب، فخرج إلى تلقيه ابن عمه الصالح إسماعيل بن نور الدين، وأقام على حلب مدة.

ثم كانت وقعة تل السلطان، وهي منزلة بين حلب وحماة، جرت بين صلاح الدين وصاحب الموصل، في سنة إحدى وسبعين، فنصر صلاح الدين ورجع غازي، وعدى الفرات بعد ماستأصل صلاح الدين كثيرا من خيامه وأمواله، وفرقها في جماعته، ثم سار صلاح الدين، فتسلم منبج، وحاصر قلعة أعزاز، ثم نازل حلب ثالثا وأقام عليها مدة، فأخرجوا ابنة صغيرة لنور الدين إلى صلاح الدين، فسألته اعزاز فوهبها لها، ثم عاد إلى الديار المصرية، واستناب بدمشق أخاه شمس الدولة تورانشاه، وكان قد عاد من اليمن، وكانت هذه السفرة منه إلى الشام مما نقم عليه ظاهرا، للإساءة فيها إلى ولد نور الدين، وهو ابن مخدومه الذي أنشأه وأحسن إليه، وقيامه على بيت الملك والعز قبله، وهما صاحب الموصل وأخوه، غير أن الحال بالآخرة تبين أن الله تعالى قد أراد إعزاز دينه على يد هذا الرجل، وأنه لايتم للمسلمين أمر بدون سلطان قاهر قادر على استئصال شأفة الفرنج في ذلك الوقت، يجتمع عليه المسلمون

ولاتتفرق عنه كلمتهم، ويكون هو في نفسه جديرا بذلك، وأبى الله أن يكون في ذلك العصر إلا صلاح الدين.

فلما وصل إلى القاهرة عائدا من الشام بعد مافعل مارأيت مجمله دون مفصله، وفي تفاصيله شرح كبير أحلناك على كتبه، خرج إلى الفرنج في سنة ثلاث، والتقاهم على الرملة، فانكسر المسلمون يومئذ، وثبت صلاح الدين وتحيز بمن معه، ثم دخل إلى مصر، ولم شعث العسكر، ثم عاد إلى الشام وملك حلب وغيرها من البلاد، وعظمت الشوكة، ثم توجه لمحاصرة الفرنج بالكرك، وجاء أخوه العادل من مصر، وكان قد استنابه عليها، فسير صلاح الدين تقي الدين عمر، ابن أخيه، ليحفظ مصر، وأعطى أخاه العادل حلب بعد أن كان بها ولده الظاهر بن صلاح الدين، وقدم الظاهر من حلب، ثم أعاد العادل إلى مصر والظاهر إلى حلب، ثم نزل على الموصل، وترددت الرسل بينه وبين صاحبها عز الدين، ثم مرض صلاح الدين فرجع إلى حران، واشتد مرضه بحيث أيسوا منه وحلفوا لأولاده بأمره، والله يريد حياته ليتم إعزاز دينه، فعوفي، ومر بحمص وقد مات بها ابن عمه محمد بن شيركوه، فأقطعها لولده شيركوه، ثم استعرض التركة، فأخذ أكثرها، وكان عمر شيركوه اثنتي عشرة سنة، ثم إن شيركوه هذا الشاب حضر بعد سنة عند صلاح الدين فقال له: أين بلغت في القرآن؟ فقال: إلى قوله تعالى:(إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا).(النساء١٠).

فعجب الحاضرون من ذكائه، وقيل: إن صلاح الدين إنما أخذ الأموال ليحفظها لهذا الشاب.

وفي سنة ثلاث وثمانين

افتتح صلاح الدين بلاد الفرنج، وأسر ملوكهم، وكسرهم على حطين، وتوالت عليه الفتوحات وأنقذ البيت المقدس منهم، وافتتحه وأعز الدين.

ومما اقتلعه من يد الفرنج طبرية، وقتل وأسر في ذلك اليوم أكثر من أربعين ألفا، وتسلم قلعتها، وأحضر إليه صليب الصلبوت، وضرب بين يديه في مخيمة أعناق مائتي فارس من عظماء الفرنج.

ثم افتتح مدينة عكا ، وكانت من أعظم حصونهم وأكبر مدنهم، وأقام بها الخطبة الاسلامية، ثم افتتح البيت المقدس وغيره، وأخلى مابين الشام ومصر من الفرنج، وهذا عداد مايحضرنا من فتوحاته من أيدي الفرنج:

قلعة أيله. طبرية. عكا. القدس. الخليل. الكرك. الشوبك. نابلس. عسقلان. بيروت. صيدا. بيسان. غزة. لد. حيفا. صفورية. الفولة. معليا. الطور. اسكندرونة. قلنسوة. يافا. أرسوف. قيسارية. جبلة. يبنى. صرفند عفر بلا. اللجون.نجد قاقون. مجدل. يابا. تل الصافية. بيت نوبا. النطرون. الجيب. البيرة. بيت لحم. يازور. حصن الدير. دمرا. قلقيلية. هريث. الزيب. الوعيرة. الهرمز. معليا. العازرية. نقوع. الكرمل. مجدل. الطار. المعبر في جبل عاملة. والشقيف. سبسطية. ويقال: بها قبر زكريا. وجبيل. وكوكب. وأنطرطوس. واللاذقية. وبكسرائيل. وصهيون. وجبلة. قلعة العيد. وقلعة الجماهرية. وبلاطنس. والشغر. وبكاس. وسرمانية. وبرزية. ودربساك. وبغراس. وكانا كالجناحين لأنطاكية. ومدينة صفد.

وكل هذه مدائن منيعة، وأكثرها اليوم قرى كبار، ومنها مدائن كثيرة باقية إلى الآن.

ونـازل صور مـدة ولم يقدر لـه فتحها، ولـه مصافـات يطول شرحهـا، وافتتح كثيرا من بلاد النوبة من يد النصارى.

ومن تأمل الـرسائل الفاضلية رأى العجب من تـأثيرات هذا الرجل في الاسلام، ومن شدة بأسه وشجاعته.

وكـانت مملكتـه من الغـرب إلى تخوم العراق، ومعهـا اليمن والحجـاز، فملك ديـار مصر بأسرهـا، مع مـاانضم إليهـا من بـلاد المغرب والشـام بأسرهـا، مع حلـب وماوالاها، وأكثـر ديار ربيعـة وبكر والحجـاز بأسره، واليمن بـأسره، ونشر العدل في الـرعية، وحكـم بالقسـط بين البرية، مـع الـديـن المتين والـورع والـزهـد والعلـم، كـان يحفـظ القـرآن و«التنبيـه» و«الحماسة».

قال الموفق عبـد اللطيف: رأيت السلطان صلاح الـدين على القدس، فـرأيت ملكـا عظيما يمـلأ القلوب روعـة، والعيون محبـة، قـريبا وبعيـدا، سهـلا محببـا، وأصحابـه يتشبهـون بـه، يتسـابقون إلى المعـروف، كما قـال تعالى:(ونزعنا ما في صدورهـم من غل) (الأعراف ٤٣) وأول ليلة حضرته وجـدت مجلسا حفـلا بأهـل العلم، يتـذاكرون في أصنـاف العلوم، وهـو يحسن الاستماع والمشـاركة، ويأخذ في كيفيـة بناء الأسوار وحفـر الخنادق، ويتفقه في ذلـك، وكان مهتما في بنـاء سور القـدس وحفر خنـدقه، يتـولى ذلـك بنفسه، وينقـل الحجـارة على عـاتقه، ويتـأسـى بـه جميع الأغنيـاء والفقراء، فيركـب لذلـك قبل طلوع الشمـس إلى وقت الظهـر، ويأتي داره فيمـد السماط ثم يستريـح، ويركـب العصر ويـرجع في ضـوء المشاعـل، ويصرف أكثر الليل في تـدبير مايعمله نهارا، وكان يحفـظ«الحماسة» ويظن أن كل فقيه يحفظها. انتهى مختصرا.

وقد وثبت عليـه الاسماعيلية مرة فجرحوه وسلمه الله، وهـو الذي ابتنى قلعة القاهرة على جبل المقطم.

وفتح من بلاد المسلمين: حران، وسروج، والرها، والرقة، والبيرة، وسنجار، ونصيبين، وآمد، وملك حلب والبوازيج، وشهرزور، وحاصر الموصل إلى أن هادنه صاحبها عز الدين مسعود، ودخل في طاعته، وكانت هذه عادته، إذا دخل أحد في طاعته لايقابله إلا بالإحسان.

وفتح أيضا من بلاد الشرق: خلاط، على يد ابن عمه تقي الدين، فهذا ماافتتحه من بلاد الشرق.

واستولى أيضا على افريقية وفتح عسكره مدينة طرابلس الغرب، وكسر عسكر تونس، وخطب بها لبني العباس، وافتتح بلاد اليمن، قيل: ولو لم يقع الخلف بين عسكره الذين جهزهم إلى الغرب لملك الغرب بأسره.

ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من عسكره على كثرتهم، وكان الناس يأمنون ظلمه لعدله، ويرجون رفده لكثرته، ولم يكن لمبطل ولالصاحب هزل عنده نصيب.

وكان إذا قال صدق، وإذا وعد وفى، وإذا عاهد لم يخن، وإذا نازل بلدا وأشرف على أخذه ثم يطلب أهله الأمان يؤمنهم، وكان جيشه يتألمون لذلك، لفوات حظهم، ولايسعهم إلا وفاقه وامتثال أمره.

وكان رقيق القلب جدا، وربما حلق على مدينة وأحاط بها، فسمع بكاء الحريم فتركها، وإنما يفعل ذلك مع المسلمين.

فمن كتاب فاضلي في فتوح حمص:(لما أحدقت العساكر المنصورة بالسور العاصم، إحداق السوار بالمعاصم، وطارت السهام إلى أوكارها من الضلوع، وبرقت الأسنة وكأنها زبد بحار الدموع، حصحص الحق، واتسع الخرق، وعلم ان ماأراده الخالق لايرده الخلق، فارتفع الضجيج،

وعلا تحت العجاج العجيج، وأدركتنا رقة رفضت من أيدينا الرقاق، وخشية عنت لنا أعنة الفساق، فرفعنا على الأسوار أعلاما منشورة، بالكف والإمساك مأمورة، ووضعت الحرب أوزارها، وحلت الأمنة أزرارها، وشفعنا الوجوه المستورة بالخفر من نسوانها، في الوجوه المكشوفة بالمعصية من فرسانها».

وربما حاصر قوما ولم يمنع الميرة عنهم، وجرى معهم على كذبهم ليأخذهم بالسهولة ثم يتبين له غدرهم وكذبهم، وهو مع ذلك يحلم عنهم، ويراعي مصلحة الدين، كما اتفق له في حمص، وقد افتتح المدينة وعصت عليه القلعة ولم يمنع الميرة عن أهلها، ثم لما تبين له حالهم لم يبادر إلى الهدم مع مافيه من سرعة نصرته، خشية على القلعة لكونها من حصون المسلمين، وطاول بهم الأمر إلى أن تيسر له فتحها.

فمن كتاب فاضلي عن السلطان وهو محاصر قلعة حمص، وقد بلغه أن أهلها استنجدوا عليه بالفرنج: :«وأمرنا في القلعة بأن لايضيق لها خناق، ولايضعف لأهلها أرماق، ولايمنع البيع والشراء والانتقال، ويفسح لها مالا يفسح فيه من يريد تثقيل وطأة الحصار، وكان من استدعائهم الفرنج ماكان، وهان بفضل الله تعالى من أمرهم ماهان».

ثم أخذ يصف القلعة المشار إليها بكونها«نجما في سحاب، وعقابا في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قلامة، عاقدة حبوة، صالحها الدهر على أن لايحلها بفزعه، عاقدة عصمة، صافحها الزمن على أن لايروعها بخلعة، فاكتنفت بها عقارب، لاتطبع طبع حمص في العقارب، وضربتها بالحجارة، فأظهرت العداوة المعلومة بين الأقارب، ولم تكن غير ثالثة(من الجد إلا وقد أثرت فيها جدريا بضربها) ولم نصل إلى السابع إلا والبحر أتى ينذر بنقبها، واتسع

الخرق على الراقع، وسقط سعدها عن الطالع، إلى مولد من هو إليها طالع، وفتحت الأبراج فكانت أبوابا، وسيرت الجبال منها فكانت سرابا، فهنالك بدت نقوب.

«.....

يرى قائم من دونها ماوراءها»[1].

ومن الكتب والمراسيم عنه

كتب في النهى عن الخوض في الحرف والصوت:(لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض)(الأحزاب ٦٥) الآية، خرج أمرنا إلى كل قائم في صف، أو قاعد في أمام وخلف، أن لايتكلم في الحرف بصوت، ولافي الصوت بحرف، ومن يتكلم بعدها كان الجدير بالتكليم:(فيحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)(النور ٦٣) وسأل النواب القبض على مخالفي هذا الخطاب وبسط العذاب، ولايسمع لمتفقه في ذلك تحرير جواب، ولايقبل عن هذا الذنب متاب، ومن رجع إلى هذا الإيراد بعد الإعلان وليس الخبر كالعيان، رجع أخسر من صفقة أبي غبشان، وليعلن بقراءة هذا الأمر على المنابر، ليعلم به الحاضر البادي، ويستوي فيه البادي والحاضر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

قلت: لاشك أن هذا الفصل من كلام القاضي الفاضل.

وهذه وقائع شتى

من ابتداء دخوله إلى مصر قبل أن يتسلطن وإلى أن استأثر الله بروحه الطاهرة، مختصرة مقتصرا فيها على عيون الأخبار.

في سنة أربع وستين وخمسمائة

كان مسيرا أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين إلى مصر، المسير الثالث، وذلك أن الفرنج قصدت الديار المصرية في جموع كثيرة، وكان الملك نور الدين من جهة الشمال ونواحي العراق، فطلعوا من عسقلان، وأتوا إلى بلبيس، فحاصروها وملكوها واستباحوها، ثم نزلوا على القاهرة فحاصروها، فأحرق شاور مصر خوفا من الفرنج، وبقيت النار فيها أربعة وخمسين يوما، فلما ضايقوا القاهرة وضعف المسلمون عنهم بعث إلى ملكهم يطلب الصلح على ألف ألف دينار، يعجل له بعضها، فأجابه ملك الفرنج، واسمه مري، إلى ذلك وحلف له، فحمل إليه شاور مائة ألف دينار، وماطله بالباقي، وكاتب في ذلك الملك العادل نور الدين يستنجد به، وسود كتابه وجعل في طيه ذوائب النساء، وواصل كتبه يستحثه ، وكان بحلب، فساق أسد الدين من حمص إلى حلب في ليلة.

قال القاضي بهاء الدين ابن شداد: قال لي السلطان صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج إلى مصر هذه المرة، وهذا معنى قوله:(وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) (البقرة ٢١٦).

وقال ابن الأثير: إن صلاح الدين قال: لما وردت الكتب من مصر إلى نور الدين أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسول إليه تحثونه على الحضور، ففعلت، فلما سرنا عن حلب ميلا لقيناه قادما، فقال له نور الدين: تجهز، فامتنع للخوف من غدرهم أولا، وعدم ماينفقه في العساكر آخرا، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت عن مصر سرت أنا بنفسي، فإنها إن ملكها الفرنج لايبقى معهم بالشام مقام، فالتفت إلي عمي وقال: تجهز يايوسف، فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر

ماسرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق مالا أنساه، فقال عمي لنور الدين: لابد من مسيره معي، وارسم له، فأمرني نور الدين وأنا استقيله، فانفض المجلس، ثم قال نور الدين: لابد من مسيرك مع عمك، فشكوت الضائقة، فأعطاني ماتجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت، وكان نور الدين رجلا مهيبا، فسرت مع عمي، فلما توفي أعطاني الله من الملك مالا كنت أتوقعه ، انتهى.

فجمع أسد الدين الجيوش، وسار إلى دمشق، وعرض بها الجيش، وتوجه إلى مصر في جيش عرمرم، فقيل: كانوا سبعين ألف فارس وراجل فتقهقر الفرنج لمجيئه، ودخل القاهرة في سابع ربيع الآخر، وجلس في الدست، وخلع عليه العاضد خلع السلطنة وولاه وزارته، وقام شاور بضيافته وضيافة عسكره وتردد إلى خدمته، فطلب منه أسد الدين مالا ينفقه على جيشه، فماطله، فبعث إليه الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري، يقول: إن الجيش طلبوا نفقتهم، وقد ماطلتهم بها وقد تغيرت قلوبهم، فإذا أتيتني فكن على حذر منهم، فلم يؤثر هذا عند شاور، وركب على عادته، وأتى أسد الدين مسترسلا وقيل: إنه تمارض فجاء شاور يعوده، فاعترضه صلاح الدين وجماعة من الأمراء النورية، فقبضوا عليه، فجاءهم رسول العاضد يطلب رأس شاور، فذبح وحمل إليه في سابع عشر ربيع الآخر، ثم لم يلبث أسد الدين أن حضرته المنية بعد خمسة وستين يوما، فقلد العاضد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف السلطنة، ولقب الملك الناصر، وكتب تقليده القاضي الفاضل، بعد ماكان وقع خلف كبير عند الفراغ من عزاء أسد الدين فيمن يكون سلطانا، ثم اتفقت كلمة الأمراء النورية على صلاح الدين، قال العماد الكاتب: وألزموا صاحب القصر، يعني العاضد، بتوليته.وقال القاضي: كانت الوصية إلى صلاح الدين من عمه، فلبس خلعة السلطنة بالقصر بين يدي العاضد، وقبل يده، وجاء إلى دار الوزارة، وإن شئت قلت: دار السلطنة فإن الوزارة عند الفاطميين هي السلطنة اسما ومعنى،

وجلس في دست الملك، وشرع في تركيب السلطنة وترتيبها، فأول مادهمه أمر الخادم الخصي الذي كان يلقب مؤتمن الخلافة، فإنه شق العصا باطنا، وائتمر وتنمر، وانضمت إليه طوائف من أخبث الروافض، وكاتبوا الفرنج خفية، فاتفق أن تركمانيا عبر بالبئر البيضاء، فرأى نعلين جديدين مع إنسان، فأخذهما وجاء بهما إلى صلاح الدين، فوجد في البطانة خرقة مكتوب فيها: إلى الفرنج من القصر، فقال: دلوني على كاتب هذا الخط، فدل على يهودي، فلما حضر تلفظ بالشهادتين، واعترف أنه كتب ذلك بأمر الطواشي المشار إليه، واستشعر الطواشي الخبر، فلزم القصر، وأعرض عنه صلاح الدين إلى أن خرج إلى قرية له، فأنهض له السلطان صلاح الدين من أخذ رأسه في ذي القعدة، وقرر مكانه بهاء الدين قراقوش، فصار مختوما على القصر، لايدخل القصر شيء ويخرج إلا بمرأى منه ومسمع.

فلما قتل الخادم غار السودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألف مقاتلة، وقد قدمنا أنهم كانوا نحو مائة ألف، وكل قاله المؤرخون، ولعل الجمع بينهما أن الخمسين ألفا كانوا مقاتلة فرسانا، والباقون كانوا رجالة، لايضمهم ديوان، وأقبلوا كقطع الليل المظلم، فخرج إليهم من عسكر صلاح الدين الأمير أبو الهيجاء، واتصل الحرب بين القصرين، ودأب الحرب بينهم يومين، ثم كانت الدائرة على السودان، وأخرجوا إلى الجيزة، وكانت لهم محلة تسمى المنصورة، فخربت وحرقت، ثم بلغ نور الدين نبأ هذه الأخبار الطيبة، فانشرح صدره، وأمد صلاح الدين بأخيه شمس الدولة تورانشاه.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

وفيها نزل الفرنج على دمياط في صفر، وحاصروها أحدا وخمسين يوما، ثم رحلوا خائبين، لأن نور الدين وصلاح الدين أجلبا عليهم برا وبحرا،

وأنفق صلاح الدين أموالا كثيرة، وقال: مارأيت أكرم من العاضد أرسل لي مدة مقام الفرنج على دمياط ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها.

وفيها دخل نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين مصر، فخرج العاضد بنفسه إلى لقائه، وتأدب ابنه صلاح الدين معه وعرض عليه منصبه.

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

وفيها عمل صلاح الدين بمصر مدرستين للشافعية والمالكية، وخرج بجيوشه فأغار على الرملة وعسقلان، وهجم على ربض غزة ورجع إلى مصر، وجهز بعض جنده إلى قلعة أيلة، فغزوها في المراكب وافتتحوها واستباحوا الفرنج فيها قتلا وسبيا، وكان فتح هذه القلعة واستعادتها من الفرنج أعظم النعم على المسلمين، فإنها كانت قلعة منيعة وكانت الفرنج قد اتخذوها هي والكرك سبيلا إلى الإحاطة بالحرمين الشريفين، فقدر الله فتحها على يد هذا السلطان، رحمه الله.

ومن كتاب فاضلي من السلطان إلى الخليفة يعدد فيه ماللسلطان من الفتوحات ومن جهاد الفرنج: ومنها قلعة بثغر أيلة بناها العدو في البحر، ومنها المسلك إلى الحرمين الشريفين بحيث كادت القبلة يستولى على أصلها، والمشاعر يسكنها غير أهلها، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم يتطرق إليه الكفار، في كلمات قالها.

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

فاستفتح السلطان الخطبة في الجمعة الأولى منها بجامع مصر لبني العباس، وأقيمت الخطبة العباسية في الجمعة الثانية بالقاهرة، وأعقب ذلك موت العاضد في يوم عاشوراء بالقصر، وجلس السلطان للعزاء، وأغرب في الحزن والبكاء، وانقرضت دولة الفاطميين، وكان لها أكثر من

مائتي سنة، وتسلم السلطان القصر بما فيه من خزائنه وذخائره واحتاط على آل القصر فجعلهم في مكان برسمهم، وقررت لهم المؤونه وجمعت رجالهم واحترز عليهم، ومنعوا من النساء لئلا يتناسلوا، وذكر المؤرخون من نفائس القصر وذخائره مالا نطيل بذكره، وانتقل الملك العادل سيف الدين أبو بكر إلى القصر بمرسوم أخيه، فاستقر في نيابة السلطان وكتبت الكتب إلى بغداد بالبشارة، وأعاد الجواب والخلعة الفائقة العباسية الى السلطان صلاح الدين.

وفيها ، قال ابن الأثير: حدث ماأوجب نفره نور الدين عن صلاح الدين، وذلك أن نور الدين أرسل إليه يأمر بجمع الجيش والمسير لمنازلة الكرك ليجيء هو بجيشه ويحاصرانها، فكتب إلى نور الدين يعرفه أنه قادم، فرحل على قصد الكرك وأتاها وانتظر وصوله، فأتاه كتابه يعتذر باختلال البلاد، فلم يقبل عذره، وكان خواص صلاح الدين خوفوه من الاجتماع به، وهم نور الدين بالدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها، فبلغ ذلك صلاح الدين، فجمع أهله وأباه وخاله الأمير شهاب الدين الحارمي، وسائر الأمراء وأطلعهم على نية نور الدين واستشارهم، فسكتوا، فقال ابن أخيه تقي الدين عمر: إذا جاء قاتلناه، ووافقه غيره من أهله، فشتمهم نجم الدين أيوب واحتد، وكان ذا رأي ومكر، وقال لتقي الدين: اسكت، وزبره وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك أتظن أن في هؤلاء من يريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال: والله لو رأيت أنا وهذا نور الدين لم يمكنا إلا أن ننزل ونقبل الأرض، ولو أمرنا بضرب عنقك لفعلنا، فما ظنك بغيرنا؟ فكل من تراه من الأمراء لو رأى نور الدين لما وسعه إلا الترجل، وهذه البلاد له، وإن أراد عز لك فأي حاجة له إلى المجيء؟ بل يطلبك بكتاب، وتفرقوا، وكتب أكثر الأمراء لنور الدين بما تم، ولما خلا بولده قال: أنت جاهل تجمع هذا الجمع وتطلعهم على سرك، ولو قصدك نور الدين لم تر أحدا منهم، ثم كتب إلى نور الدين بإشارة والده نجم الدين يخضع له، ففتر عنه.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

فأرسل السلطان فيها قراقوش مملوك ولد أخيه تقي الدين عمر إلى جبال نفوسة، ومعه طائفة من الأتراك، فلما وصل إلى الجبال استصحب معه منها بعض المتقدمين، ونزل على طرابلس الغرب، فحاصرها ثم فتحت ، فاستولى عليها قراقوش وسكنها وكثرت عساكره وفيها جهز السلطان شمس الدولة إلى برقة فافتتحها على يد غلام له تركي.

ثم بلغ السلطان أمر ابن مهدي الخارج باليمن وماهو عليه من اختلال العقيدة، فجهز أخاه شمس الدولة، فافتتح اليمن وتملكها.

ثم سار السلطان بنفسه من مصر يريد اقتلاع مدينة الكرك من الفرنج وبدأ بها لقربها إليه، وكان من الوهن في الإسلام والعظمة في الدين استيلاء الملاعين على الكرك وعلى قلعة أيلة، فإنهم يمنعون الحاج وأشد من ذلك مايخشى على الحرمين الشريفين منهم، إذ لم يكن بينهم وبينهما حاجز غير لطف الله، وقصدوهما مرات ثم يندفعون بمشيئة الله من غير دفاع من البشر، وكانت الكرك تزيد على قلعة أيلة بمنع القوافل السائرة بين الشام ومصر، فإنها كانت الدرب، وأما غزة والرملة وماحواليهما فكان الفرنج لايمكنون مسلما أن يمر بهما، فورد عليهما وحاصرهما وقاتل الفرنج، ولم يفتحهما في هذه السنة، ورجع إلى مصر.

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

قال ابن الأثير: جهز السلطان أخاه توران شاه إلى بلاد النوبة، فافتتح منها ماشاء الله، فلما عاد جهزه إلى اليمن بقصد عبد النبي صاحب زبيد، فطرده عن اليمن وملك زبيد وأسر عبد النبي وزوجته الحرة، وكانت صالحة كثيرة الصدقة، وعذب عبد النبي واستخرجت منه أموال، ثم سار

توران شاه إلى عدن، وملكها ناشر، فأسر وهزم، ثم سار فافتتح من حصون اليمن قلعة تعرف بقلعة الجند.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : يقال: افتتح ثمانين حصنا ومدينة باليمن وماحواليها.

وقد تقدم في السنة قبلها إرسال تورانشاه، وهو شمس الدولة إلى اليمن ووقعة النوبة فقتل، والله أعلم في أي السنتين كان إرساله.

وفي هذه السنة وصل الموفق ابن القيسراني إلى مصر رسولا من الملك نور الدين يطالب السلطان صلاح الدين بحساب جميع ماحصله من أرياع البلاد، ولم يعلم نور الدين بتفاصيل علو شأن صلاح الدين وأنه مستول على أعظم مافي يد نور الدين، فصعب ذلك على صلاح الدين، وقيل: إنه أراد شق العصا، ثم ذكر لنور الدين حقوقه وإحسانه، وأمر النواب بالحساب، وعرضه على ابن القيسراني، وأراه جرائد العساكر بالإقطاعات، وأعاده إلى نور الدين ومعه الفقيه عيسى وهدية عظيمة، وهي ختمة بخط ابن البواب، وختمة بخط مهلهل، وختمة بخط الحاكم البغدادي، وربعة مكتوبة بالذهب بخط فارسي، وربعة عشرة أجزاء بخط راشد، وثلاثة أحجار بلخش، وستة قضبان زمرد، وقطعة ياقوت وزن سبعة مثاقيل، وحجر أزرق ستة مثاقيل، ومائة عقد جوهر وزنها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا، وخمسون قارورة دهن بلسان وعشرون قطعة بلور وأربع عشر قطعة جزع، وإبريق يشم، وطشت يشم، وصحون صيني، وزبادي أربعون، وكرتان عود قماري، وزن إحداهما ثلاثون رطلا بالمصري، والأخرى أحد وعشرون، ومائة ثوب أطلسي، وأربعة وعشرون بقيارا مذهبة، وخمسون ثوب حرير وحلة فلفلي مذهب، وحلة مرايش صفراء، وغير ذلك من القماش الذي يكثر عده، وقيمة القماش على ماذكر مائتان وخمس وعشرون ألف مثقال ذهب، ومن الخيل والبغال

والجواري والسلاح شيء كثير، ومن المال خمسة أحمال، ولم يصل شيء من ذلك إلى نور الدين، لأنه مات قبل وصوله.

ولما مات نور الدين طمعت الفرنج وتحركوا بالسواحل، وسلطن الشاميون الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، وكان عمره نحو عشر سنين، فاستنجد بالسلطان صلاح الدين صاحب مصر، ونزل الفرنج على بانياس، وصالحهم أمراء دمشق على مال وأسارى يطلقون، فلما بلغ ذلك صلاح الدين انزعج له، وكتب إلى الشاميين يوبخهم، وكتب إلى شيخ الشافعية شرف الدين ابن أبي عصرون يخبره أنه لما أتاه كتاب الملك الصالح تجهز للجهاد وخرج وسار أربع مراحل، جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام على يد من اقتلعها من دفع القطيعة والأسارى، وسيدنا الشيخ أول من جرد لسانه الذي تغمد له السيوف وتجرد.

ولما بالغ صلاح الدين في توبيخ الأمراء، وكان ابن المقدم أكبر أمراء دمشق خشي من قدوم صلاح الدين إلى الشام، وأشاع أن صلاح الدين يريد انتزاع دمشق من ولد مخدومه نور الدين، وكتب إلى صلاح الدين:«لايقال عنك إنك طمعت في بيت من غرسك، ورباك وأسسك، وفي دست ملك مصر أجلسك» ثم تعطف له وترفق ويقول: «ومايليق بحالك، غير فضلك وافضالك».

فكتب إليه صلاح الدين:«إنا لانؤثر للإسلام وأهله إلا ماجمع شملهم وألف كلمتهم، ولانختار للبيت الأتابكي، أعلاه الله، إلا ماحفظ أصله وفرعه، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، ونحن في واد والظانون بنا سوء الظن في واد».

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

وقد تزايد طمع الفرنج في دمشق بموت نور الدين، فرأى صلاح

الدين من الحزم جمع المسلمين على سلطان واحد يقيم الملة وينصر الشريعة، وأنه ذلك الواحد الذي تعقد عليه الخناصر، وأن الاسلام محتاج إليه، وصار الحاسدون والجاهلون بأحكام الشريعة يعيبون منه قصده لأخذ دمشق، ويقولون: كيف يسلب ولد استاذه نعمته، وينزع ملكه، وهم كما قال:«في واد» فإنه فيما يغلب على الظنون الصادقة إنما قصد لم شعث الاسلام وقيام الدين، وظهر ذلك على يده من بعد، فخرج من مصر بجيوش لاتحصى عددها، واستخلف أخاه الملك العادل نائبا بها، ووصل إلى بصرى في رابع عشري ربيع الآخر، فخرج إليه صاحبها منقادا لخدمته، ثم تتابع عسكر الشام ملاقين مستبشرين، ونزل بجسر الخشب في الثامن والعشرين، وقد تكاثرت العساكر وازدحم الملاقون، وأصبح لدخول دمشق فعارضه عدد من الرجال فدعستهم عساكره المنصورة، وصدمتهم خيوله وعزماته المأمورة، ودخل البلد وملكها بلا قتال، ونادى من ساعته بإطابة النفوس وإزالة المكوس، وكانت الولاية في دمشق قد ساءت، والمكوس التي رفعها نور الدين قد أعيدت، فأعاد صلاح الدين الحق إلى نصابه، وصارت دمشق مثل مصر وكلاهما في مملكته.

ثم خرج إلى حمص فنازلها، ونصب المجانيق على قلعتها ولم يملكها، وترحل عنها إلى حماة فملكها في جمادى الآخرة، ثم سار إلى حلب وحاصرها إلى آخر الشهر، وبها الصالح اسماعيل ولد نور الدين، واشتد بها الحصار، وهذه هي الفعلة التي نقمت على صلاح الدين، فالله أعلم بنيته، وأنه أساء العشرة في حق الصالح ابن نور الدين، بحيث استعان الصالح عليه بالباطنية، ووعدهم بالأموال، فقتلوا من أمراء صلاح الدين الأمير خمارتكين، وخلقا، وجرحوا صلاح الدين ثم أمسكهم وقتلهم عن آخرهم، ورجع إلى حمص فحاصرها بقية رجب وتسلمها بالأمان في شعبان، ثم عطف إلى بعلبك فاستلمها، ثم رد إلى حمص وقد اجتمع عسكر حلب وكتبوا إلى صاحب الموصل يستعينون به على صلاح الدين، فجهز إليهم جيشه وأمدهم بأخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي،

فأقبل الكل إلى حماة وقد استقرت لصلاح الدين فحاصروها، فسار إليهم صلاح الدين فالتقاهم على قرون حماة فكسرهم أقبح كسرة، ثم سار إلى حلب فوقع الصلح بينه وبين ابن زنكي، على أن يكون له إلى آخر بلد حماة والمعرة، وأن يكون لولد نور الدين حلب وجميع أعمالها، وتحالفوا ورد إلى حماة، وجاءته رسل الخليفة المستضيء بالخلع والهدايا والتهنئة بالملك، ثم سار إلى حصن بارين فحاصره ثم تسلمه.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

وفيها كان وقعة تل السلطان بنواحي حلب، وذلك أن عسكر الموصل نكثوا أيمانهم، ووافوا تل السلطان في جموع كثيرة وعليهم السلطان سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، فالتقاهم السلطان صلاح الدين في جمع قليل فهزمهم وأسر كثيرا منهم وحقن الدماء، ثم أحضر الأمراء الذين أسرهم فمن عليهم وأطلقهم.

ثم سار صلاح الدين إلى منبج وأخذها في شوال من ينال بن حسان المنبجي، وكان نور الدين قد أعطاها لينال عندما انتزعها من أخيه غازي ابن حسان، وصعد الحصن وجلس يستعرض أموال ابن حسان صاحبها وذخائره فكانت ثلاثمائة ألف دينار، ومن أواني الذهب والفضة والذخائر والأسلحة ماينا هز ألفي ألف دينار، ورأى على بعض الأكياس والآنية، مكتوبا يوسف، فسأل عن هذا الاسم فقيل: ولد له يحبه اسمه يوسف وكان يدخر له هذه الأموال، فقال السلطان: أنا يوسف وقد أخذت ماخبىء لي.

ثم سار إلى عزاز فنازل قلعتها ثمانية وثلاثين يوما، وقفز عليه وهو محاصرها قوم من الفداوية وجرح في خده وأخذوا فقتلوا ثم افتتح عزاز.

ومن كتاب منه إلى أخيه العادل:«ولم ينلني من الحشيشي الملعون إلا

خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة، انقطعت لوقتها واندملت لساعتها».

ثم سار من عزاز، فنازل مدينة حلب كرة أخرى في نصف ذي الحجة، وأقامت القلعة في حفظها بكل ممكن وصابرها صلاح الدين شهرا.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

وفيها ترددت الرسل في الصلح بين السلطان صلاح الدين والملك الصالح اسماعيل بن نور الدين، فرحل صلاح الدين عن حلب وأبقاها لابن نور الدين، ورد عليه عزاز، وتوجه إلى مصياف بلد الباطنية، فنصب عليها المجانيق، وأباح قتلهم، وخرب بلادهم، فتشفعوا بصاحب حماة شهاب الدين خال السلطان، فسأل السلطان الصفح عنهم، وتوجه عائدا إلى مصر، فوصلها، وأمر ببناء السور الأعظم المحيط بمصر والقاهرة، وجعل على بنايته الأمير قراقوش، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين، وصرفت عليه أموال جزيلة.

وفيها أمر بإنشاء قلعة الجبل المقطم التي هي الآن دار سلاطين مصر، وجعل على بنائها أيضا قراقوش، ولم يكن السلاطين قبلها يسكنون إلا دار الوزارة بالقاهرة.

ثم سافر إلى الاسكندرية وتردد إلى السلفي، فسمع منه الحديث، ثم عاد إلى مصر وبنى تربة الشافعي رضي الله عنه.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

وفيها كانت وقعة الرملة، سار السلطان من القاهرة إلى عسقلان

فسبى من الفـرنج كثيرا وغنم، وسار إلى الـرملة وقد تجمعت عليـه الفرنج وحملـوا على المسلمين فانهزمـوا، وثبت السلطـان وابـن أخيه تقـي الديـن عمر، ودخـل الليل واحتوى الفـرنج على أثقال المسلمين، واستشهـد من المسلمين جماعـة، منهم أحمد ولـد تقـي الـدين عمـر، ولم يبـق للمسلمين قدرة على ماء ولازاد وتعسفوا الرمال راجعين إلى مصر.

وفي هـذه الواقعـة أسر الفقيـه عيسى الهكـاري أكبر الأمـراء، فافتـداه السلطـان بستين ألف دينـار، ودخل السلطـان القـاهرة بعـد ثلاثـة عشر يوما، وتواصلت خلفه العساكر ثم عاد السلطان إلى الشام.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

وفيها اجتمعت الفرنج عند حصن الأكراد، فسار إليهم السلطان ولم يقع قتال، ثـم أغاروا على أعمال دمشق، وجهز لحربهم فرخشـاه ابن أخي السلطان، فالتقاهم وكسرهم وقتل من مقدميهم جماعة منهم هنفري.

قال ابن الأثير: وما أدراك ماهنفري، به كان يضرب المثل في الشجاعة.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

وفيها ضربت الطبـول ببغداد وزفت البشائر بانتصـار السلطان صلاح الديـن على الفرنج، وأسره لصاحـب الرملة، وصـاحب طبرية الكافـرين، وهي وقعة مرج العيون.

ومن حـديثها أن صلاح الـدين كان نازلا تـل بانياس يبيـت بسراياه، فلما استهل المحـرم ركب فرأى راعيـا فسأله عـن الفرنج فـأخبره بقربهم، فعاد إلى مخيمه وأمـر الجيش بالركوب فركبـوا، وسار بهم حتى أشرف على الفرنج وهم في ألف قنطاريـة وعشرة آلاف مقاتل فارس وراجل، فحملوا

على المسلمين فثبتوا لهم، وحملت المسلمون عليهم فولوا الأدبار، فقتل أكثرهم وأسر منهم مائتان وسبعون أسيرا، منهم باديين، وأود مقدم الداوية، وابن بيرزان فاستفك نفسه بمبلغ وبألف أسير من المسلمين، واستفك الآخر نفسه بجملة، وأما أود فجن في حبس قلعة دمشق، وانهزم من الوقعة ملكهم مجروحا، وأبلى في هذه الوقعة عز الدين فرخشاه بلاء حسنا.

واتفق في يوم الوقعة ظفر أسطول مصر ببطستين وأسروا ألف نفس، فلله الحمد على نصره.

وكان قليج أرسلان سلطان الروم طلب حصن رعبان وزعم أنه من بلاده، وإنما أخذه منه نور الدين على خلاف مراده، وأن ولده الصالح اسماعيل قد أنعم به عليه، فلم يفعل السلطان، فأرسل قليج عشرين ألفا لحصار الحصن، فالتقاهم تقي الدين عمر صاحب حماة،ومعه سيف الدين علي المشطوب، في ألف فارس، فهزمهم لأنه حمل عليهم بغتة وهم على غير تعبية، فضربت كوساته، وعمل عسكره كراديس، فلما سمعت الروم الضجة ظنوا أنهم قد دهمهم جيش عظيم فركبوا خيولهم عريا، وطلبوا النجاة وتركوا الخيام بما فيها، وأسر منهم عددا، ثم من عليهم بأموالهم، وسرحهم، ولم يزل تقي الدين يدل بهذه النصرة، ولاريب أنها عظيمة.

وورد بغداد رسول صلاح الدين، وهو مبارز الدين كشطغاي وجلس له ظهير الدين أبو بكر ابن العطار، وبين يديه أرباب الدولة فجاء وبين يديه اثنا عشر أميرا عليهم الخوذ والزرديات، ومع كل واحد قنطارية وعلى كتفه طارقة ملك الفرنج، على القنطاريات سعف الفرنج، وبين يديه أيضا من التحف والنفائس من ذلك صنم حجر طول ذراعين، فيه صناعة عجيبة قد جعل سبابته على شفته كالمبتسم عجبا، ومن ذلك

صينية ملآنة جواهر وضلع آدمي نحو سبعة أشبار في عرض أربع أصابع، وضلع سمكة طوله عشرة أذرع في عرض ذراعين.

وفيها جهز السلطان القاضي أبا الفضائل بن الشهرزوري إلى الخليفة ببغداد أيضا بجواهر مثمنة وعشرة أسرى من الفرنج.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

وفيها توجه السلطان قاصدا بلاد الأرمن وبلاد الروم ليحارب قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان عندما استجار محمد بن قرا أرسلان ابن داود صاحب حصن كيفا بالسلطان على حموه قليج المذكور، ثم صلح الحال بينهما، فنزل السلطان على حصن من بلاد الأرمن، فأخذه وهدمه ثم رجع ، فعند وصوله إلى حمص جاءه التقليد والخلع من الخليفة الناصر، فركب بها بحمص، وكان يوما مشهودا، وجاء إلى دمشق وولى عز الدين فرخشاه نيابة السلطنة بالشام وهو ابن أخيه، ثم توجه السلطان إلى مصر وتوجه منها إلى الاسكندرية، وشاهد ماتجدد بها من السور، وسمع بها الموطأ علي أبي الطاهر ابن عوف.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة

وفيها قصد نائب الشام عز الدين فرخشاه بمرسوم السلطان بلاد الكرك بالعساكر فخربها، وذلك عندما بلغ السلطان أن اللعين صاحب الكرك سولت له نفسه قصد المدينة الشريفة ليتملكها، فلما نهبت بلاده عاد بالخيبة.

وفيها ظهرت الوحشة بين الخليفة الناصر والسلطان، وذلك أن السلطان لما اشتهر اسمه بالعدل وشدة الوطأة، وخافته النفوس الفاجرة، واستبشرت به الأرواح الطاهرة، وحسده ملوك الأطراف، وأحبوا أن يوقعوا

بينه وبين الخليفة سولوا للخليفة أمورا أوجبت أن يكتب للسلطان يأخذ عليه في أشياء، منها تسميته بالملك الناصر مع علمه أن الإمام اختار هذه التسمية لنفسه، وهذه الواحدة على ندورتها مدفوعة بأن السلطان لقب بالناصر من أيام الخليفة المستضيء قبل ان يلي الناصر الخلافة فكتب له السلطان جوابا فاضليا منه: «والخادم ولله الحمد يعدد سوابق في الاسلام والدولة العباسية لايعدها أولية أبي مسلم، لأنه والى ثم وارى، ولاآخرية طغرلبك لأنه نصر ثم حجر، والخادم بحمد الله خلع من كان ينازع الخلافة رداءها، وأساغ الغصة التي ذخر الله للإساغة في سيفه ماءها، فرحل الأسماء الكاذبة الراكبة على المنابر، وأعز بتأييد البراهيمي فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الظاهر لا الساتر، وفعل وما فعل للدنيا، ولامعنى للاعتداد بما هو متوقع الجزاء عنه في اليوم الآخر».

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

فيها افتتح السلطان حران، وسروج، وسنجار، ونصيبين، والرقة، والبيرة، وآمد، ونازل الموصل وحاصرها، وبهره مارأى من حصانتها، وجاءه شيخ الشيوخ صدر الدين من قبل الخليفة يتشفع في صاحب الموصل فرحل عنها.

وفيها بعث السلطان أخاه سيف الاسلام طغتكين على نيابة السلطنة بإقليم اليمن بأسره، وأمره بإخراج نواب أخيه تورانشاه بها، فرحل إليها وقبض على متولي زبيد حطان ابن منقذ واخذ منه أموالا جزيلة، وسكن سيف الاسلام في اليمن.

وفيها مات عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب نائب الشام، فبعث السلطان على نيابة دمشق شمس الدولة محمد بن المقدم.

وفيها خرج السلطان بنفسه من مصر غازيا وماتهيأ له العود إليها، وقد عاش بعد ذلك اثنتي عشرة سنة.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

ورسل الخليفة في كل سنة تجيء غير مرة بالتودد ظاهرا واستعلام أخبار السلطان باطنا، فلا يرون إلا إماما عادلا لايصطلى له بنار، وغضنفرا باسلا لايقوم لغضبه إلا الواحد القهار، وكتب له السلطان كتابا فاضليا فيه من أخبار الفرنج:« كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرا، وافتضوا من البحر بكرا، وعمروا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة».(٢)

obeikandl.com

الكواكِبُ الدّريَّة

في

السِيّرةِ النّوريَّة

تصنيف

بَدر الدّين ابن قَاضي شُهْبَة

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي.

الحمد لله مالك الممالك وموضح المسالك، وجاعل العدل نجاة من المهالك. أحمده وهو المحمود المالك، وأوحده وهو الغني عن المشارك، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، إلهاً لايزول ملكه ولايفنى، وملكاً تخصصَّ بالصفات والأسماء الحسنى، حكم فعدل في حكمه، وعلم ماكان ومايكون، فلم يخف شيء عن علمه، وأشهد أن سيدنا محمداًﷺ عبده ونبيه ورسوله وصفيه، الذي رفع به منار الحق، وأرسله رحمة للخلق، وزينّه بالصفات الحسان، وأنزل عليه(ان الله يأمر بالعدل والإحسان) (١) صلى الله عليه وعلى آله الأمجاد وصحبه الأنجاد الذين جاهدوا في حق الله حق جهاده، واجتهدوا رضي الله عنهم في مصالح عباده، وبسطوا بساط العدل في بلاده، وسلّم وكرم، وشرّف وعظم.

وبعد، فإن العدل قوام الدنيا والدين، وسبب صلاح المخلوقين، به تألفت القلوب، والتأمت الشعوب، ولاح الفلاح، وظهر النورُ والصلاح، واتصلت أسبابُ النجاح، وهو أحسن ماتزين به الملوك الذين مكنّهم الله في أرضه، وأوجب عليهم القيام بفرضه، ولايوفّق إلى صراطه القويم إلا من سبقت له العناية في الأزل القديم. ويكفي ملوكَ العدل من مزيد الكرامة قولُ[رسول الله]ﷺ (لمقسطون على منابر من نور) (٢) وقولهﷺ وزاده شرفاً لديه:(أحبّ الناس إلى الله وأدناهم مجلساً منه يومَ القيامة إمام عادل، وهو من السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لاظل إلا ظله) (٣) أو كما قال ﷺ وعلى الجملة والتفصيل ففي العدل الخير كله، فسبحان من وفق إليه من سبقت له الحسنى، ومن بوّأه لديه المقامَ الأسنى، فأضفى عليه من ملابس نعمه الفاخرة، وجمع له بين سعادة الدنيا والآخرة.

ولما كان الملك العادل السعيد، نور الدين الشهيد محمود بن زنكي بن

آق سنقر التركي، سقى الله عهده، ووّطأ في الفردوس مهده، وشكر في مصالح الإسلام سَعْيَه الناجح، وثقّل بعظيم ميزانَه الرّاجح، ممن شاع فضلُه واشتهر، وذاع عدلُه وظهر، وأشرق نورُه الساطع وبهر، وسلك من العدل في الرعايا أحسن السلوك، ويسر الله تعالى له ببركة العدل ماعجز عنه عظماء الملوك، أحببتُ ان أذكر طرفاً من سيرته الفاضلة، وأحكامه العادلة، ومحاسنة الظاهرة، وسجاياه الطاهرة، وأوصافه الزاهرة المشرقة اشراقَ الشموس الباهرة، ليقتدي بها من نظر إليها ووقف عليها من أعلام سلاطين الإسلام، الذين كرمت سجاياهم، وشرفت مزاياهم، ورغبوا في الذكر الجميل، والثواب الجزيل، وحرصوا على نيل السعادة الكبرى، وأمّلوا حسن الجزاء من الله سبحانه وتعالى في الأخرى.

ورتّبت هذا الكتابَ على سبعة أبواب مشتملة على: أوصافه، وعدله، وانصافه، ونعوته التي فاق بها على الملوك، وحسن أعماله التي سلك بها من مناهج الرشاد أحسن السلوك. وهذه فهرست الأبواب:

الباب الأول في ذكر مولده وصفاته، وذكر أفعاله الدّالة على حسن نياته.

الباب الثاني في ذكر عدله الدال على رصانة عقله، ووفور كرمه وفضله.

الباب الثالث في ذكر شجاعته وشهامته، ونجدته، وصرامته، وقوة عزمه، وحسن رأيه وحزمه.

الباب الرابع في مافعله في بلاد الإسلام من المصالح، والمساعي الكفيلة بالمناجح، ومأأدخلَ على المسلمين من المسار، وعمهم به من المبار.

الباب الخامس في زهـده وورعه وعبادته ودينه وعمله المكمـل لسيادته، الشاهد بتأطيد دعائم سعادته.

الباب السـادس في نبذة مما مـدح به مـن الأشعار الفائقـة، والقصائد البديعة الرائقة.

الباب السابع في ذكر غزواته العديـدة، وفتُوحاته السعيدة، وماجرى في زمانه من الأمور الغريبة، والحوادث العجيبـة وسمّيته«الكواكبَ الدرية في السيرة النّـورية». والله سبحـانـه وتعالى الموفـقّ للصـواب، المرجو لحُسـن الثّواب، وهوتعالى المؤمّل لصلاح الأحوال، وتسديد الأقوال والأفعال.

الباب الأول

في ذكر مولده وصفاته، وأفعاله الدالة على حسن نياته

ولد نور الدين أبو القاسم محمود بن الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي السلجوقي مولاهم يوم الأحد عند طُلوع الشمس سابع عشر شوّال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة، وقلة المخالطة للجند، وكان أبوه يقدمه على بقية أولاده، ويرى فيه مخايل النجابة، وكان معتدل القامة، أسمر اللون، واسعَ الجبهة، حسن الصورة، لحيته شعرات في حنكه.

ولما تُوفي والده سنة إحدى وأربعين، وبلغ أسد الدين شيركوه وفاته، ركب من ساعته وقَصَد خيمة نور الدين، وأشار عليه بالتوجُّه إلى حلب، وأن يجعلهَا كرسي مملكته، وذكر أنه إذاملك حلب، اجتمع في خدمته عساكرُ الشام وقال له: أنا أعلم أنّ الأمرَ يصيرُ جميعهُ إليك لأن مُلك الشام يحصل بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق، فركب وأمر أن يُنادى بالليل في عساكر الشام بالاجتماع، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب، فدخلها في سابع شهر ربيع الأول، وجاء أسدُ الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها ففتحها، وأصعدَ نور الدين إليها، وقرّر أمره، ومشى أحواله.

ثم إن نور الدين خرج غازياً ففتح حصوناً كثيرة.

قال ابن عساكر: فتح نيفاً وخمسين حصناً، وكسر برنس انطاكية، وقتله وقتل معه ثلاثة آلاف نفس، وأخذ من القومص [٤] ثلاثمائة ألف دينار، وخمسمائة زردية، وخمسمائة حصان، وخمسمائة أسير.

قال ابن الجوزي: استرجع من أيدي الكفار نيفاً وخمسين مدينة وكان

قد عزم على فتح القدس فوافته المَنِيَة، وخُطب له بالحرمين الشريفين مكة والمدينة، وبلاد الشام ومصر، وأظهر السنة بمدينة حلب، وأزالَ البِدعة التي للروافض في الآذان: حي على خير العمل، وقمع بها الروافض، وبنى بها المدارس والمساجد، وأصلح طرقها، ووسع أسواقها، وأسقط جميع المكوس، وعاقب على الخمر.

وكان في الحرب ثابِتَ القدم، حسن الرمي، صلب الضرب، يتقدم أصحابَه في الحرب، يَتَعَرَّض للشهادة، ويسأل الله تعالى أنْ يحشره من بطون السباع وحواصل الطيور.

ووقف أوقافاً على المرضى والمجانين، وبنى المكاتب لليتامى، وبنى المارستان بدمشق، ووقف على سُكان الحرمين الشريفين، وأقطعَ أُمراءَ العرب الأقاطيع لئلا يتعرضوا للحجاج، وأمر بإكمال سور المدينة، وأجرى إليها العَيْنَ التي بأُحد عند قبر حمزة رضي الله عنه، وبنى الربط والجسور والخانقات والقناطير، وجدّد كثيراً من قنيّ السبيل في دمشق وغيرها من البلاد التي ملكها، ووقف كتباً كثيرة في مدارسه، وله أوقافٌ دارّة على جميع أبواب الخير.

وكان الجامع الأموي قد دثر، فولّى نظره لقاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري، فأصلح أموره، وفتح المشاهدَ الأربعة، وكان حاصلُ الجامع بها من حين احترق سنة إحدى وسبعين وأربعمائة. وأضاف إلى أوقاف الجامع المعلومة، الأوقاف التي لاتعرف شروط واقفيها، وسمّاها مالَ المصالح، ورتّب عليها لذوي الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل والايتام وما أشبه ذلك.

وفتح بدمشق باب الفرج ولم يكن قبله هناك باب بالكلية، وأغلق باب كيسان.

وكان رحمه الله حسنَ الخطّ، كثير المُطالعة للكتب الدينية، متبّعا للآثار النبوية، مواظباً على الصلوات في الجماعات، عاكِفاً على تلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيفَ البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق، متحرِّياً في المطعم والمشرب والملبس، لم يسمع منه رحمه الله تعالى كلمة فُحش قط لافي رضاه ولافي غضبه. وأشهى مايكون إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنّة يتبعها، ولولم يكن من حسن خصاله إلا ماعلم منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، وإذا تحدّث بشيء يقف عليه، ولايخاف قوله، ولايجري في مجلسه الفسقُ والفجُور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم كما يجري في مجالس الملوك، ولايطمع في أخذ أموال المسلمين.

قال أبو الحسن ابن الأثير: قد طالعتُ تواريخَ الملوك المتقدمين قبل الاسلام ومنه إلى يومنا هذا فلم أرَ فيه بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسنَ سيرةً من الملك العادل نور الدين، ولاأكثرَ تحرّياً للعدل والانصاف منه، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهادٍ يتجهّزُ له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه، وإنعام يُسديه، فلو كان في أمة لافتخرت به، فكيف ببيتٍ واحد!

الباب الثاني

في ذكر عدله الدال على رصانة عقله ووفور كرمه وفضله

قال ابن الأثير: وفي الحقيقة هو الذي جدد للملوك سنّة العدل والانصاف، وترك المحرمات من المأكل والملبس والمشرب وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية همّ أحدهم بطنه وفرجه، لايعرف معروفاً ولاينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، والزم بذلك أتباعَه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ماكانوا يفعلونه.«ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة».

كان رحمه الله تعالى أحسن الملوك سيرةً وأعدلهم حكماً، فمن عدلِه أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولامكساً ولاعشراً بل أطلقها جميعها في بلاد الشام والجزيرة وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه. وكان يتحرى العدَل وينصف المظلوم كائناً من كان: الضعيف والقويّ عنده في الحق سواء. وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولّى كشفَ حاله بنفسه، ولايكل ذلك إلى حاجب ولاأمير، فلاجرم سار ذِكرُه في شرق الأرض وغربها.

ومن عدله: كان يعظّم الشريعة المطهّرة، ويقف عند أحكامها، ويقول: نحن شحن لها نمضي أوامرها. فمن اتباعه[أحكامها] أنه كان[يوما] يلعب بالأكرة فرأى انساناً يحدّث آخر ويومىء بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فقال: لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام ا لقاضي ليحضر معي إلى مجلس الشرع يحاكمني على الملك الفلاني، فعاد إليه ولم يتجاسر يعرفه ماقال ذلك الرجل، ثم لما ألح عليه في السؤال ذكر له قوله، فألقى الجوكان من يده، وخرج من الميدان،

وسار إلى القاضي، وهو حينئذ كمال الدين الشهرزوي وأرسل إلى القاضي يقول له: إني قد جئت محاكماً، فاسلك معي ماتسلكه مع غيري. فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه، وتحاكما فلم يثبُت عليه حق، وثبت الملكُ لنور الدين، فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا. فقال: اشهدوا عليّ أني قد وهبتُ له هذا الملك الذي حاكمني عليه، وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي، وانما حضرت معه لئلا يظن أني ظلمته. فحيث ظهر أن الحق لي، وهبتهُ له. وهذا غايةُ العدل بل غايةُ الفضل، وهي درجة فوق درجة العدل. فرحم الله تلك النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق الواقفة معه.

قال ابن الأثير: وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الأزمنة وتفرق الكلمة، وإلا فقد انقادَ إلى مجلس الحكم جماعةٌ من الصحابة مثل: عمر، وعلي، ومعاوية، رضي الله عنهم.

قال: ومن عدله أنه لم يعاقِبْ على المظنة والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه بيّنة شرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ. فدفع الله تعالى بهذا الفعل عن الناس من الشر مايوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنّة. وأمِنَتْ بلادُه مع سعتها، وقلّ المفسدون ببركة العدل واتّباع الشريعة المطهرة.

قال: وحكى لي من أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال، فرأى مالاً كثيراً، فقال: من أين هذا؟ قالوا: بعث به القاضي كمال الدين من فائض الأوقاف، فقال: إنّ هذا المالَ ليس لنا. ولالبيتِ المال في هذه الجهةِ شيء، وأمر بردّه وإعادته على القاضي كمال الدين ليرده على صاحبه. فأرسله مُتَولي الخزانة إلى القاضي فردّه أيضاً إلى الخزانة، وقال: إذا سأل السلطانُ عنه فقولوا له: غيره. فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فوجده. فأنكر على الخازن، وقال: ألم أقلْ لك إن هذا المالَ يُعاد على

أصحابه؟ فذكر له القاضي، فردّه إليه، وقال لرسوله: قلْ لكمال الدين: أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقبتي رقيقة لاأطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله عز وجل.

قال: ومن عدله أيضاً، بعد موته، وهو أعجب مايحكى، أنْ إنساناً كان بدمشق غريباً استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين، فلما توفي تعدّى بعض الأجناد على هذا الرجل، فشكاه، فلم يُنْصَف منه، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي، وقد شق ثوبه ويقول: يانور الدين! لو رأيتنا ومانحن فيه من الظلم لرحمْتنا. أينَ عدلك؟ وقصد تربةَ نور الدين ومعه من الخلق مالايُحصى، وكل منهم يبكي ويصيح. فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلدَ والرعيّة وإلاّ خرج عن يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه فطيّب قلبه، ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشدّ من الأول، فقال له صلاح الدين: لمَ تبكي؟ فقال: أبكي على سلطانٍ عدل فينا بعد موته! فقال له صلاح الدين: هذا هو الحق، وكلما ترى فينا من عدله ومنه تعلمّناه.

قال: ونور الدين أول من بنى دار العدل بدمشق، وسماها دار الكشف. وسببُه أنَّ الأمراء لما قدموا مدينةَ دمشق فبنوا الأملاك واستطالوا على الناس، وخصوصاً أسد الدّين شيركوه، وكثُرت الشكاوى إلى القاضي فلم يُقدم على الإنصاف من أسد الدين، فشكاه إلى نور الدين، فأمر ببناء دار العدل، فلما سمع أسدُ الدين بذلك، أحضرَ أصحابَه وديوانَه وقال لهم: اعلموا أن نورَ الدين مابنى هذه الدّار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على القاضي كمال الدين؟ والله لئنْ حضرتُ إلى دار العدل بسبب واحد منكم لأصلبنه، فامضوا إلى كل من كان بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوه وأرضوه بأي طريق أمكن، ولو أتى ذلك على جميع مابيدي، فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا

اشتطوا في الطلب، فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهل عليَّ من أن يراني نورُ الدين بعين أني ظالم، فجلس نور الدين في دار العدل لفصل الخصومات والحكومات. وكان يجلسُ في الاسبوع اليومين والأربعة والخمسة وعنده القاضي والفقهاء، ويأمر بإزالة الحجاب والبواب، ويوصل إليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة، ويسأل الفقهاء عن ماأشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة المُطهرة. وبقي على ذلك مدة، فلم يحضر عنده أحد يشكو من شيركوه. فعرّفه القاضي الحال، فسجد لله شكراً وقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم إلينا. قال: فانظر إلى هذه المعدلة ماأحسنَها، وإلى هذه المهابة ماأعظمها، وإلى هذه السياسة ماأشدّها، هذا مع أنه كان لايريق دماً، ولايبالغ في عقوبة، وانما كان يفعل هذا صدقة في عدله وحُسن نيته.

وحضر إليه يوماً جماعة من التجار وشكوا إليه ان القراطيس كان ستون منها بدينار فصار سبعة وستون بدينار، وتزيد وتنقص ويخسرون. فسأل نورُ الدين عن كيفيّة الحال، فذكروا له أن عقد المعاملة على اسم الدينار في الوسط، وإنما يعدّون القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار، وتارة سبعة وستين بدينار. فأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدنانير الملكية، وتبطل القراطيس بالكليّة، فسكت ساعة، وقال: إذا ضربتُ ا لدينار وابطلتُ المعاملة بالقراطيس فكأني خربتُ بيوتَ الرعية، فإن كلّ واحد من السوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، ايش يعمل بها! فيكون سبباً لخراب بيته. فأيّ شفقة تكون أعظم من هذا على الرعية رحمه الله تعالى!

وحكي أنه كان قبل بناء دار العدل يجلس يوم الثلاثاء بالمسجد المعلّق

الذي بالكشك ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم.

وحكى شاذبخت الطواشي الخادم النوري، قال: كنت يوماً أنا وسنقر خجا واقفين على رأس نور الدين وقد صلّى المغربَ وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً، وجعل ينكتُ بأصبعه في الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا: في أي شيء يفكر: في عائلته أو وفاء دينه؟ وكأنه فطن بنا، فرفع رأسَه، وقال: ماتقولان؟ فقلنا: ماقلنا شيئاً، فقال: بحياتي قولا لي، فقلنا: عجبنا من افراط مولانا في الفكر، وقلنا: يفكّر في عائلتِه أو في وفاء دينه، فقال: والله إني أفكر في والٍ وليّته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبةَ بذلك، فبالله عليكم والا فخبزي حرام عليكم، لاتريان قصة ترفع إلي أو تعلمان مظلمةً إلا وأعلماني بها، وارفعاها إلي.

وحكى أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم قال: كان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة الموصل أن لايعملَ شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي، وأن لايعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء، قال: فكان لايعمل بالسياسة وبطلت الشحنكية. فجاء أكابر الدولةوقالوا لكمشتكين: قد كثر الدّعار وأرباب الفساد، ولاينجي من هذا شيء إلا بالقتل والصلب، فلو كتبتَ إلى نور الدين في ذلك، فقال: أنا لاأكتب إليه في هذا المعنى ولاأجسرُ على ذلك، ولكن قولوا للشيخ عمر يكتب إليه، فحضروا عنده، وذكروا له ذلك، فكتب إلى نور الدين، وقال له: إن الدّعار والمفسدين وقطّاع الطريق كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثلُ هذا لايجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أُخذ مال إنسان في البريّة من يجيء ليشهد له؟ قال: فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره: إن الله تعالى خلق الخلقَ وهو أعلم بمصلحتهم، وإنّ مصلحَتهم تحصل فيما شرعه على وجه

الكمال، ولو علم أنَّ على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فمالنا حاجة إلى زيادةعلى ماشرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهويكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على الله وعلى شَرْعه، والعقول المُظلمة لاتهتدي، فالله سبحانه يهدينا وإياك إلى الكتاب وإلى صراط مستقيم. قال: فجمع الشيخُ عمر أهل الموصل وأقرأهم الكتابَ وقال: انظروا كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وحكي أنه دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجرٌ موسر فمات بها، وخلّف ولداً صغيراً ومالاً كثيراً، فكتب من بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات هاهنا رجل تاجر موسر خلّف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولدٌ صغير عمره عشْر سنين، وحسّن له أن يرفع المال إلى الخزانة فإذا كبر الفتى يرضى منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة، فكتب نور الدين على الرقعة: أما الميّتُ فرحمه الله تعالى، وأما الولدُ فأنشأه الله، وأما المال فثمّره الله، وأما الساعي فلعنه الله. وهذه الحكاية تحكى عن غير نور ا لدين، فلعله مما تطابق فيه الحافر[على الحافر].

الباب الثالث

في ذكر شجاعته وشهامته ونجدته وصرامته وقوة عزمه وحسن رأيه وحزمه

فقد كانت النهاية إليه في ذلك، وكان أصبرَ الناس في الحرب، وأحسنهم مكيدة ورأياً، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم. وبه كان يضرب المثل السائر في ذلك.

يقال انه لم يُرَ في زمانه على الفرس أحسن منه، كأنه خلق عليها لايتحرك ولايتزلزل، وكان من أحسن الناس لعباً بالأكرة وأقدرهم عليها، وربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، ولم يرَ جوكانه يعلو رأسه، وكانت يدُه لاتُرى والجوكان فيها، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب.

وكان إذا حضر الحربَ أخذ قوسين وشدَّ تِركاشين [٥] وكان يباشر الحرب بنفسه، وكان يقول: قد تعرضتُ للشهادة غيرَ مرة فلم أدركها ولو كان فيّ خيرٌ ولي عند الله قيمةٌ لرزقتها، والأعمال بالنيات.

وقال له يوماً القطب النيّسابوري الفقيه الشافعي: يامولانا السلطان، لاتُخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فانك عمادهم، فلو أصبت في معركة، والعياذُ بالله، لايبقى من المسلمين أحدٌ إلا أخذه السيفُ وتؤخذ البلاد، فقال: ياقطب الدين، اسكتْ، فإن قولك هذا إساءةٌ أدب على الله، ومن محمود حتى يقال له هذا؟ قبلي من حفظ البلاد، ذلك الله الذي لاإله إلا هو، فبكى من كان حاضراً.

قال ابن الأثير: ومن أحسن الآراء ماكان يفعله مع جنده، فإنه كان

إذا توفي أحـدُهم وخلَّـف ولداً أقـرَّ إقطاعـه عليه، فـان كان الـولد كبيراً استبد بنفسه، وإن كان صغيرا رتب معـه من يتولى أمره إلى أن يكبر،فكان الأجناد يقولون: هذه أمـلاكنا يرثها الولد عن الوالـد فنحن نقاتل عليها. وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب المقتضية للصبر في المشاهد والحروب.

ومـاكان يكِـلُ الجند إلى الأُمـراء، بل يتـولاهم بنفسـه ويباشر خيـولهم وسلاحهم مخافـة ان يقصر الأمراء في حقهم، ويقول : نحـن كل وقت في النفير، فإذا لم يكن أجنادنا كاملي العدة دخل الوهن على الإسلام.

وأما هيبته ووقاره فإليه النهايـة. وكان، كما قيل، شديداً من غير عنف، رقيقاً مـن غير ضعف، واجتمع لـه مالم يجتمع لغيره، فـإنه ضبط نـاموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لامزيد عليها، وكان يلزمهم بوظائف الخدمـة، الصغير منهـم والكبير. ولم يجلـس عنده أمير مـن غير أمـره لـه بالجلوس إلا نجم الـدين أيوب والد صلاح الدين يوسـف، وأما ما عداه كـأسد الـدين شيركـوه ومجد الديـن ابن الـداية وغيرهما فـإنهم كانـوا إذا حضروا عنده يقومون إلى أن يأمرهم بـالقعود. وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس إذا دخـل عليه الفقيه أو الصوفي، يقوم لـه ، ويمشي بين يديه ، ويجلسه إلى جانبـه كأنه أقرب النـاس إليه، وكان إذا أعطى أحـدهم شيئاً يقول : هـؤلاء لهم في بيت المال حق، فإذا قنعـوا منا ببعضه فلهـم المنة (علينا) .

وكان مجلسـه : كما روي في صفة مجلـس رسول الله ﷺ : « مجلـس حلـم وحياء لا تـؤبن فيـه الحرم » . هكذا كـان مجلسه لا يـذكر فيـه إلا العلم والـدين وأحـوال الصالحين، والمشـاورة في أمر الجهـاد وقصد بـلاد العدو، ولا يتعدى هذا.

وحكي : أن الحافـظ ابن عساكـر رحمه الله حضر مجلس الملـك الناصر

صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللغط وسوء الأدب من الجالسين ما لم يحدث في غيره ، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المحدثين وقلة استماعهم ، فقام، وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي؛ وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر ، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه، فقال : نزهت نفسي عن مجلسك ، فإني رأيته كبعض مجالس السوقة لا يستمع إلى قول قائل، ولا يرد جواب متكلم. وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين، فكنا كما قيل كأنما على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، فإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا أنصت لنا . فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أن لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قال ابن الأثير: هكذا كانت أحواله رحمه الله جميعها مضبوطة محفوظة .

وكان معتنياً بحفظ أصول الديانات، ولا يمكن أحداً من إظهار ما يخالف الحق، ومتى أقدم مقدم على ذلك، أدّبه بما يناسب بدعته، وكان يبالغ في ذلك ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه.

قال: وحكي أن إنساناً بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر الزهد والنسك، وقد كثر اتباعه وأظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين، فأركبه حماراً وأمر بصفعه، وطيف به في البلد جميعه، ونودي عليه: هذا جزاء من أظهر في الدين البدع ثم نفاه من دمشق، فقصد حران.

قال: ويسوق الله القصيري الأعمار إلى البلاد الوخمة .

الباب الرابع

فيما فعله في بلاد الإسلام من المصالح والمساعي الكفيلة بالمناجح

وماأدخل على المسلمين من المسارّ وعمّهم به من المبار

وذلك عظيم كثير. من ذلك أنه بنى أسوارَ مدن ا لشام جميعها وقلاعها، منها: دمشق، وحمص، وحماة، وحلب، وبازين، وشيزر، ومنبج، وغيرها من القلاع والحصون، وحصّنها وأحكم بناءها، وأنفق عليها من الأموال مالاتسمح به النفوس، وبنى أيضاً المدارسَ بدمشق وحمص وحماة وحلب وغيرها للشافعية والحنفية، حتى ان بلاد الشام كانت خاليةً من العلم وأهله، وفي زمنه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية، وبنى الجوامعَ في غالب البلاد، فجامعهُ في الموصل إليه النهاية في الحسن والاتقان، وكان قد فوّض أمرَ عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملاء رحمه الله، وكان من الصالحين، فقيل له: انه لايصلح لمثل هذا العمل، فقال: إذا وليَت العمل بعضَ الأجناد أو بعض العمال أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات، ولايفي الجامع بظلم رجل مسلم، وإذا وليّت هذا الشيخَ غلب على ظني أنه لايظلم أحداً، فإذا ظلم كان الإثم عليه لاعليّ.

وإنما سميَ هذا الشيخُ بالملاء لأنه كان يملأ تنانير الآجر، ويأخذ الأجرةَ يتقَوَّتُ بها، وكان ماعليه من الثياب مثلَ القميص والعمامة يملكه لغيره، فلا يملك من الدنيا شيئاً، وكان عالماً بفنون العلوم، وجميعُ الملوك والأعيان والعلماء يزورونه ويتبرّكون به، وكان يعمل مولِداً لرسول الله ﷺ في كل سنة ويحضر دعَوته صاحبُ الموصل والأكابر، وكان نورُ الدين يحبه ويكاتبه.

وكان مكان الجامع النوريِّ خربةً واسعةً ماشرع أحدٌ في عمارتها إلا وقصر عمره، فأشار الشيخُ عمر على نور الدين بعمارتها جامعاً، فاشتراها وأنفق عليها أموالاً كثيرة يقال ستين ألف دينار، ويقال ثلاثمائة ألف دينار، فتم في ثلاث سنين، ولما توجه نور الدين إلى الموصل، وهي المرة الأخيرة، فصلى فيه، ووقف عليه قرية بالموصل، ورتب فيه خطيباً ومؤذنين، وعمل له البسط والحصر وغيرها، ثم دخل الشيخُ عمر على نور الدين وهو جالس على دِجْلة فترك بين يديه دساتيرَ الخرج على الجامع، وقال: يامولانا، أشتهي أن تنظر فيها، فقال: ياشيخ نحن عملنا هذا لله تعالى، دع الحساب إلى يوم الحساب، ثم رمى بالدساتير في دجلة.

وبنى جامع حماة على نهر العاصي، وهو من احسن الجوامع وأنزهها .

وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق، فانه عظيم كثير الخرج.

وحكي أنه وقع بيد نور الدين افرنجي من أكابر الملوك، ففدى نفسه بمال عظيم، فشاور نور الدين أمراءَه، فأشاروا ببقائه في الأسر خوفاً من شره، فأرسل إليه نور الدين في السر يقول: أحضِر المال، فأحضر ثلاثمائة ألف دينار، فأطلقه نور الدين. فعند وصوله إلى مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره فأعلم أصحابهَ، فتعجبوا من لُطف الله بالمسلمين حيث جمع لهم الحُسنيين: الفداء وموت ذلك اللعين.

وبنى نور الدين البيمارستان بدمشق، وبنى أيضاً مدرسته ودارَ الحديث بدمشق، ووقف عليها الأوقاف. قاله ابن الأثير .

قال الشيخ عماد الدين بن كثير: ومن شرط البيمارستان أنه على الفقراء والمساكين، وإذا لم توجد بعض الأدوية التي يعزّ وجودها إلا فيه فلا

يُمنع منه الأغنياء، ومن جاء إليه فلايمنع من شرابه ولهذا جاء نور الدين وشرب من شرابه رحمه الله تعالى، قال: ويقول بعضُ الناس إنه لم تخمد منه النار منذ بني إلى زماننا [٦] هذا.

قلت: ويقال إنها مستمرة لم تخمد إلا في فتنة تمرلنك، عامله الله بما يستحق.

حكى الشيخ الجزري في تذييله على المرآة أن نور الدين لما حضر إلى البيمارستان أحضر له قدح شراب فشربه، وقال: هذا حلال على جميع المسلمين وعلى مثلي وعلى أقلّ العالم، وحرام على اليهود والنصارى، وعلى غلام وجارية تحت الرقّ، فلا يدخله إلا من هو معتوق.

قال: وبنى أيضاً الأبراجَ على الطرق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الحمام الهوادي، فإذا رأوا أحداً أرسلوا الطيور، فأخذ الناس خبرهم وتجهزوا لهم، فلم يبلغ العَدوُّ منهم غرضاً، وكان هذا ألطفِ الفِكر وأكثره نفعاً.

قال: وبنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية، ووقف عليهم الوقوف الكثيرة، وأدرَّ عليهم الإدرارات الصالحة، وكان يُحضر مشايخَهم عنده ويقربهم ويدنيهم ويباسطهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل عليه أحدُهم يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته، ويقبل عليه بحديثه، وكان كذلك يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنظر، وكانوا يقصدونه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها، وكان إذا نقل عن انسان منهم عيب يقول: ومن المعصوم؟ إنما الكامل من تعدّ ذنوبه.

قال ابن الأثير: إن بعض الأمراء حسد قطبَ الدين النيسابوري الفقيه الشافعيّ لقربه من نور الدين، فقال له: يامسكين، لو نظرت في عيب

نفسك لشغلك عن عُيوب غيرك، ولو صحَّ ماتقول فله حسنة تغفرُ له زلة تذكرها وهي العلم والدين، وأما أنتَ وأصحابك ففيكم أضعاف ماذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، والله لئن عدتَ إلى ذكره أو ذكر غيره بسوء لأؤدبنك، فكف عنه.

قال ابن الأثير: هذا هو الاحسان والفعل الذي ينبغي أن يُكتب على العيون بماء الذهب.

قال: وبنى داراً للحديث بدمشق، وهو أولُ من بنى دار الحديث فيما علمنا، وبنى مكاتبَ الأيتام في كثير من البلاد، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الخيرات الوافرة، وبنى أيضاً المساجد الكثيرة ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن، قال: وهذا فعل لم يسبق إليه، قال: وبلغني ممن هو عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا وهو سنة ثمان وستمائة في أبواب البر بالشام كلّ شهر تسعة آلاف دينار صورية، ليس فيها ملك فيه كلام، بل حقٌ ثابت بالشرع باطناً وظاهراً.

وذكر العماد الكاتب في أول كتابه البرق الشامي نورَ الدين وأثنى عليه وقال: في سنة تسع وستين وخمسمائة التي توفي فيها نورُ الدين أكثر فيها من الأوقاف والصدقات وعمارة المساجد المهجورة، وأمر بتعفية آثار الآثام وإسقاط كل مافيه من الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخراج ومايحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج.

قال: وأمرني بكتابة مناشير لجميع البلاد، فكتبتُ أكثر من ألف منشور، وحسبنا ماتصدَّق به على الفقراء في تلك الأشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار، وكانت عادته في الصّدقة ان يُحضر جماعةً من أماثلِ البلد من كلِّ محلة ويسألهم عمن يعرفونه في جوارهم من أهل الحاجة، ثم يصرف اليهم على قدر حاجاتهم، قال: ولو اشتغلتُ بذكر وقوفه وصدقاته في

كلِّ بلد لطال الكتاب ولم يبلغ إلى أمد، ومشاهدة أبنيته دالةٌ على خُلوص نيّته، تغني عن خبرها بالعيان، وتكفي أسوارُ البلدان والربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب، وفي شرح طوله طول، وعمله لله ذلك مبرور مقبول.

قال: ولما أسقط نور الدين الجهات المحظورة والشبه المحذورة، عزل الشحن، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن، وقال للقاضي كمال الدين الشهرزوري: انظر أنت في ذلك، واحمل أمور الناس فيها على الشريعة، قال: ولم يكن لبيت المواريث حاصل ولالديوانه حامل، فجعل نور الدين ثلث مايحصل منه لكمال الدين الحاكم فوفره نوابه وكثروه، وماكان نور الدين يحاسب القاضي على شيء من الوقوف، ويقول: أنا قد قلدته على أن يتصرف بالمعروف (٧) .

وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله أنه حضرمع عمه الحافظ أبي القاسم رحمه الله مجلسَ نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمر في أثناء الحديث أنَّ النبيﷺ خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه، وقال: كان رسول اللهﷺ يتقلد السيف، يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم، قال: فلما كان من ا لغد مرّ وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب ا لسلطان، فوقفنا ننظر إليه، فخرج نور الدين رحمه الله تعالى من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك، فرحم الله هذا الملكَ الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبيّ ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغَتْه رجعَ بنفسه وردَّ جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيّهﷺ ، فما الظن بغير ذلك من السنن!

وكان رحمه الله فرداً في زمانه من بين سائر الملوك، ولو لم يكن إلا استماعه للموعظة وانقيادة لها وان اشتملت على ألفاظ قد أغلظ فيها.

وحكى شرف الدين بن المستوفي في تاريخ إربل ان المنتجب الواعظ أبا عثمان ابن أبي محمد البحتري عمل في نور الدين قصيدة وأنشده إياها من لفظه وهي قوله:

مثّل وقوفك أيها المغرور
يوم القيامة والسماء تمور
انْ قيل نور الدين رحتَ مسلماً
فاحذر بأن تدعى ومالك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت من
كأس المظالم طافح مخمور
عطّلت كاسات المدام تعفّفاً
وعليك كاساتُ المكوس تدور
ماذا تقولُ إذا نقلت إلى البلى
فرداً، وجاءك منكر ونكير
ماذا تقولُ إذا وقفتَ بموقف
فرداً ذليلاً والحسابُ عسير
وتعلّقتْ فيك الخصوم وأنت في
يوم الحساب مسحب مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في
ضيق اللحود موسَّد مقبور
ووددت أنك ماوليتَ ولايةً
يوماً، ولا قال الأنامُ أمير
وبقيت بعد العزّ رهنَ حفيرة
في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عرياناً حزيناً باكياً
قلقاً، ومالك في الأنام مجير
أرضيتَ أن تحيا وقلبك دارس
عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيتَ أن يحظى سواك بقربه
أبداً وأنت مبعد مهجور

تــدعــى بنــور الــديــن فــاحــذر في غــد
تــدعــى ظــلام الــديــن مــالــك نــور (٨)

قال صاحب الروضتين: ولعل هذه الأبيات كانت من أقوى الأسباب المحركة لإبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم، رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه، ووفّق من رام الإقتداء به.

وكان هذا الواعظ من كبار الصالحين ليسَ له شيءٌ ولايقبل من أحد شيئاً، إنما كانت له جبة يلبسها اذا خرج إلى مجلس وعظه، وكان في مجلس وعظه ألوف من الناس.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم: حكى لي السلطان الملك الناصر صلاحُ الدين، قال: أرسلني الملكُ العادلُ نورُ الدين إلى عمّي أسد الدين شيركوه، وكان لايفعل شيئاً الا بمشورته، وقال: امض إليه، وقل له: قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس، وخذ رأيه في ذلك، قال: فجئت إلى عمّي، وأنهيتُ إليه ماقال لي، فقال: امضِ وقل له: يامولانا، إذا فعلتَ ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم، وتحتاج إليهم غداً للجهاد وخروج العساكر للغزاة، فقال صلاح الدين: فقلت لعمي: هذا أمر قد ألهمه الله إياه فساعد عليه، فصاحَ في وقال: امضِ إليه وقل له ماقلتُ لك، قال: فعدتُ إلى نور الدين وأنهيتُ إليه ماقال لي عمي، فقال: امضِ إليه وقل له: إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولانخرج، قال: فعدتُ إلى عمي وقلت له ماقال، فقال: قل له: إن تركوك تقعد فجيد هو، فراجعته في ذلك ان لايثبطه في ذلك فصاح في وقال: امض وقل له ماقلت لك، فجئت إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مدة ثم أمضى ماكان عزم عليه.

وحكي عن بعض مماليك نور الدين أنه كان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول: ارحم العشار المكاس.

قال صقر بن يحيى: بلغني ان موفق الدين خالداً رأى في النوم نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقصّها على نور الدين فتمعّر وجهه، فخجل موفق الدين، وبقي أياماً على غاية من الخجل، فاستدعاه نور الدين يوماً وقال: قد آن لك أن تغسل ثيابي، اقعد واكتب باطلاق المؤن والمكوس والأعشار واكتب للمسلمين إني قد رفعت عنهم مارفعه الله تعالى عنكم، واثبت ما أثبَتَه اللهُ عليكم. فكتب موفق الدين توقيعاً بذلك.

وحدث رضي الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر أن نور الدين حين خرج لأجل شيزر خرج أبو غانم بن المنذر صحبته، فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور باطلاق المظالم: بحلب، وحمص، وسنجار، وحرّان، والرحبة، وعزاز، وتل باشر، وعداد العرب (٩) فكتب عنه توقيعاً نسخته:بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ماتقرّب به إلى الله سبحانه صافحاً واطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا، رعاهم الله، لضعفهم عن عمارة ماأخربته أيدي الكفار، أبادهم الله تعالى، عند استيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم على العباد، رفقاً بالمسلمين المثاغرين، ولطفاً بالضعفاء والمرابطين الذين خصهم الله تعالى بفضيلة الجهاد، واستمنحهم بمجاورة أهل العناد، اختباراً لصبرهم وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً:(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (١٠) ، وأعاد عليهم ماغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من ا لفتوح العمرية، وأقرها في الدولة الإسلامية، بعد ماطرأ عليها من الظلمة المتقدمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجور، وهدم أركان التعدي، وأقر الحق مقرّة لقوله تعالى: (من جاءَ بالحسَنَة فلهُ عَشْرُ أمْثالها) (١١) (واللهُ يُضَاعفُ لمن

يشاء) [١٢]. ثم أعانه اللهُ بعونه، وأيّده بنصره، وقمع به عادية الكفر، واظهر بهمته الإسلام، وأظهره على الفئة الباغية، وأمكنه من ملوكها الطاغية، فجعلهم بين قتيل غير مقاد، وهارب ممنوع الرّقاد(وآخرين مُقرنين في الاصفاد *هذا عطاؤنا فامْنُنْ أو امْسِك بغير حساب* وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) [١٣] علم أن الدنيا فانية فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكه الزائل بأن قدّمه وجعله ذخراً للمعاد، فالتقوى مادة زاده اذا انقطعت المواد(يَوْمَ لاتَمْلِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمْرُ يَوْمَئِذٍ لله) [١٤] ، فسمح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس، فأسقطها من دواوينه، وحرّمها على كلّ متطاولٍ إليها، ومتهافت عليها، تجنباً لاثمها، واكتساباً لثوابها، فكان مبلغُ ماسامح به واطلقه وأنفذَ الأمر فيه اتباعاً لكتاب الله وسنةِ رسوله ﷺ في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار، جهة ذلك: حلب المحروسة خمسون ألف دينار، عزاز عن مكس جددته الفرنج خذلهم الله على المسافرين عشرة آلاف دينار، تل باشر واحد وعشرين ألف دينار، المعرّة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة لما استنجد به أهلها واستصرخ به من فيها خوفاً على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدو، وضعفهم عن مقاومته، ماكان يؤخذ منهم في كل سنة، وهو رسم يسمونه الفيئة، عشرون ألف دينار، حمص ستة وعشرون ألف دينار، حران خمسة آلاف دينار، سنجار ألف دينار، الرحبة عشرة آلاف دينار، عدا د العرب عشرة آلاف دينار، طلباً لما عندَ الله، (واللهُ عنده حُسْنُ الثواب) [١٥] ، فالواجب على كل إمام عادل وسلطان قادر أن يمده ويودّه، ويشدّ عضده، ويقوّي عزمه، وينفّذ حكمه. وعلى كل مسلم أن يواصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار. وكتب إلى كل من يصلُ إليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين وأصحاب الزوايا المتعبدين، وكافة التجار المسافرين، أحسنَ اللهُ توفيقهم، ليُشْعروا بذلك من حضرهم من التجار المترددين إليهم من السفّار ليعرفوا قدر ماأنعم الله به عليه وعليهم(ولِيُنْذِروا قَوْمَهم إذا رَجَعوا إليهم) [١٦] ويُمدّوه

بأدْعِيَتِهم، ويبرئوا ذمته مما سبق من أخذ مؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلا في وجه برّ، وتجهيز جيش، ومعونة مجاهد، وردع كافر ومعاند، فهم شركاؤه في الثواب، فلما وقف نور الدين على قوله: ويبرئوا ذمته مما سبق، استحسن ذلك ووعده باقطاع حسن.

وذكر قاضي القضاة بهاء الدين أن نورَ الدين سيَّر كتاباً إلى بغداد يعلم الخليفة بما أطلقه وبمقدار ماأطلق، ويسأله ان يتقدم إلى الوعاظ بأن يستحلوا من التجار ومن جميع المسلمين له وان يجعلوه في حل مما كان وصل إليه من أموالهم، فتقدم بذلك، وجعل الوعاظَ ينادون على المنابر بذلك.

قال صاحب الروضتين: نقلتُ من خطّ الشيخ الأمين أبي ا لقاسم عبد الرحمن بن الحسين بن عبدان الأزدي الدمشقي: وقف المولى نور الدين بستان الميدان، سوى الغيطة التي من قبلته، بعد عمارته واصلاح مايحتاج إليه على تطييب المساجد التي يأتي ذكرها: وهي جامع دمشق المحروسة، جامع القلعة بها، ومدرسة الحنفية التي جدّدها نور الدين، مسجد ابن عطية داخل باب الجابية، مسجد ابن لبيد بالفُسْقار، مسجد سوق الرماحين، المسجد المعلّق بسوق الصاغة، مسجد دار البطيخ المعلّق، مسجد العبّاس بسوق الأحد بالصالحية، المسجد الذي جدَّده نورُ الدين جوار بيعة اليهود، جامع الصالحين بجبل قاسيون: يُبتاع بذلك طيب وعود، ويفرق على هذه الأماكن: النصف للجامع بدمشق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً: جزءان للمدرسة، وتسعة أجزاء للمساجد الباقية لكل مسجد جزء واحد. تطيب هذه الأماكن في الأوقات الشريفة، ومواسم الاجتماعات، وليالي شهر رمضان، والأعياد، وأيام الجُمع وقتَ عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين.

قال: ونقلت من خطّه أيضاً أن نور الدين حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي، والفقهاء الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد، والإمام عز الدين أبوالقاسم علي بن الحسن الشافعيون وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكي، وشرف الاسلام نجم الدين بن عبد الوهاب الحنبلي، ورضي الدين أبو غالب بن عبد المنعم بن محمد بن أسد التميمي رئيس دمشق، ونظام الدين أبو الكرم المحسن بن أبي الضياء متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق وهم: عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصائن أبو الحسن وغيرهم. فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد بدمشق من المصالح التي ليست وقفا عليه، وأن يُظهر كل واحد منهم مايعلمه من ذلك ليعمل به ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجُوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئا إلا ويذكره، ولايُنكر شيئا مما يقولهُ غيره إلا وينكره، والساكت منكم مصدق للناطق ومصوِّب لقوله، وليس العمل إلا على ماتتفقون عليه وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، وكل من الحاضرين شكره على ماقصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء. ثم أمر نور الدين رحمه الله تعالى متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقنيّ السبيل ومايجري مع ذلك أن يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعا موضعا ليفرد مايعلمون أنه للمصالح دون الوقف. فافتتح با لسوق المستجدّ تحتَ المئذنةِ الغربية جوارَ البيمارستان، فقال الصائن وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين وليس من وقف الجامع لأنه أحدث في طريق المسلمين، كما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة. ثم عين للمصالح أيضاً مافي زيادة الجامع القبلية وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشامي من العضائد والحوانيت

والحجر التي علوها، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع والفرن المستجدّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت في الخواصين في الصف الغربي، واثني عشر حانوتا متلاصقات من ا لصف الشرقي تعرف بالمعتصمات، ونصف حانوت، والفرجة المستجدة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي، وعدتها ثلاثة عشر حانوتاً ومصطبة، وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي لصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفُسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفقاعي، وحوانيت اللبادين والتي بحضرة الفوارة تحت اللبادين وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب درب التمارين، وحانوت بقنطرة الشماعين في الصف الشامي بحضرة البياطرة، وقطعة جوار المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق ا لأحد وهي خمس عشرة عضادة، وستة أسهم من طاحون السقيّفة، وذلك كلُّه بعضه ميراث عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضهُ اشتُري بمال الوقف والمصالح، وبعضه أخذ ممن باد أهلهُ الموقوف عليهم ولم يكن له مال، وبعضُه أُحدث في الطريق، قال: فلما شهدوا بصحة جميع ماذُكر، وأن منافع ذلك وأجوره جاريةٌ في ا لمصالح، قال نور الدين: إنّ أهم المصالح سد ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم، وصوّبوا ماأشار إليه وشكروه، ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين، فأفتى شرفُ الدين المالكي بجواز ذلك، ومنهم من توقف ليتروى، فقال الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون: لايجوز أنْ يُصرف وقفُ مسجد إلى غيره، ولاوقفٌ معيّن إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدّ من ذلك، فليس طريقه إلا أن يقرضه من إليه الأمر في بيت المال للمسلمين. فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجبا من بيت المال فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك، ثم

سأل ابن أبي عصرون نورَ الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق، وعلى بناء الكلاسة من شام الجامع، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع، وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامي من الجامع، وسائر العمائر المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا، وهل كان إلا بمبلغ الأمر العالي في عمل ذلك، فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا بإذني، وأنا أمرتُ به وبفتح المشهدين غربيّ الجامع المعمور اللذين كانا مخربين، وكنت مبلغاً عني ومؤذناً أمري.

هذا مختصر المحضر الذي كتب فيه صورة ماجرى في ذلك المجلس، وهو مشتمل على فوائد حسنة، وتأكيد لمانقل من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشريعة، وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين.

وحكى صاحب الروضتبين عن بعضهم أنه حضر صبيّ عند الملك العادل وبكى، وذكر ان أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف، فسأل عن حاله، فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعيد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة وليس له قدرة على الأجرة، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، قال الملك العادل نور الدين كم أجرة السنة؟ قالوا: مائة وخمسون قرطاساً. وذكروا سيرته وطريقته وفقره،فرقَّ له وأنعم عليه، وقال: نحن نعطيه كلّ سنة هذا القدرَ ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وأمر باخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل أحد من الحاضرين الفرح حتى كأنَّ الانعامَ كان في حقّه.

الباب الخامس

في ذكر زهده وورعه وعبادته ودينه وعلمه المكمل لسيادته، الشاهد بتأطيد دعائم سعادته

قال ابن الأثير: فان قال قائلٌ كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة، فليذكُرْ نبيَّ الله سليمان بن داود عليه السلام مع ملكه وهوسيّد الزاهدين في زمانه، ونبيّنا ﷺ قد حكم:حضرموت، واليمن والحجاز، وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى أرض العراق، وهو على الحقيقة سيّدُ الزاهدين، قال: وإنما الزهد خلوُّ القلب من محبة الدنيا لاخلو اليد منها.

وكان نور الدين رحمه الله تعالى مع سعة ملكه وذخائر بلاده لايأكلُ ولا يلبس ولايتصرف فيما يخصه إلا من ملك اشتراه من سهمه من الغنائم، وكان يُحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحلُّ له من تناول الأُموال المرصدة لمصالح المسلمين، فيأخذ مايفُتونه بحله، ولم يتعدَّه إلى غيره البتة.

ويقال إن نفقته كانت من الجزية في كل شهر ألفا قرطاس يصرفُها في كسوته وملبوسه ومأكوله حتى أجرة خياطه، ويستفضل منها مايتصدق به في آخر الشهر، ويقال انّ قيمة القراطيس مائة وخمسون درهماً، وماكان يصلُ إليه من هدايا الملوك وغيرهم يبعُه ويعمّر به المساجدَ المهجورة، ويشتري لها أوقافاً ولايتناولُ منها شيئاً، ولايلبس قط ماحرمه الشرعُ من حرير أو ذهب أو فضة، ومنع من شُرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ومن إدخالها إلى بلد ما، وكان يحدُّ شاربَها الحدَّ الشرعي، كل الناس عنده فيه سواء.

كان كثيرَ الصيام، وله أوراد في الليل والنهار. وكان يقدم أشغال المسلمين عليها، ثم يتمم أوراده.

أخبرت عنه زوجته الخاتون بنتُ معين الدين أنه كان إذا جاء إليها يجلسُ في المكان المختص به فتقوم بخدمته، ولاتتقدم إليه إلا في أخذ ثيابه عنه، ثم تنعزل في المكان المختص بها، وينفرد هو تارةً يطالعُ في وقائع أصحاب الأشغال، أو ينظر في كتاب أتاه ويجيب عنه، وكان يصليّ فيطيل الصلاة، وله رحمه الله تعالى أوراد في النهار، فإذا جاء الليل وصلّى العشاء، نام ثم استيقظ نصف الليل، فيتوضأ ويصلي إلى الفجر، ثم يصليّ الصبح، ويظهر للركوب ويشتغلُ بمهمات الدولة.

وأرسلتْ إليه الخاتونُ يوماً أخاها من الرضاع تذكر له أنه لم يكفها ماكان قرّره، وتطلب منه زيادة، فلما قال ذلك، تنكر واحمر وجهه، ثم قال: من أين أعطيها مايكفيها؟! والله لاأخوض في نار جهنم في هواها، إنْ كانتْ تظنّ أنَّ الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم، وأنا خازنُهم فلا أخونهم فيها. ثم قال لي: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم، وقد وهبتُها إياها، فلتأخذها، وكان يحصُل منها قدر يسير.

وقدكانت زوجته هذه أيضاً من الصالحات الخيّرات تُكثر القيام، فنامت ليلةً عن وردها فأصبحت وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت له نومها الذي فوّت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طبلخانة في القلعة وقت السّحر ليوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل، ورتب للضارب جراية وجامكية.

قال ابن الأثير: وكان لايفعل فِعلاً إلا بنّية حسنة. وكان بالجزيرة رجلٌ من الصالحين كثير العبادة والورع، شديد الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله، ويرجع إلى قوله، ويعتقد فيه اعتقاداً حسناً. فبلغه

أن نور الدين يُدمن اللعبَ بالكرة، فكتب إليه يقول: ماكنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية؟ فكتب إليه نور الدين بخطه يقول: والله مايحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر والعدو منا قريب، فربما وقع صوتٌ فتكون الخيل قد أدمنتْ على سرعة الانعطاف بالكر والفرّ، فاذا طلبنا العدو أدركناه، ولو تركناها على حالها لصارت جماماً لاتنفع، ولايمكننا ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، إذ لابد من الراحة للجند، فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة.

قال: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير الذي يقل في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله، فان من يجيء إلى اللعب بهذه النية الصالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القربات، فقلّ في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لايفعل شيئاً إلا بنية صالحة، وهذه أفعال العُلماء الصالحين العاملين.

قال: وحُكي عنه انه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة، فوضعت بين يديه، فلم يلتفت إليها، وبينما هم معه في حديثها، إذْ جاءه رجل صوفي فأمر له بها، فقيل له: إنها لاتصلح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها كان أنفع له، فقال: أعطوها له فإني أرجو أن أعوَّض عنها في الآخرة، فسلمت إليه، فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أميري أو سبعمائة دينار أميري. ويقال انه أعطاها لشيخ الصوفية أبي الفتح بن حمويه، فبعث بها إلى العجم، فبيعت بألف دينار.

قال: وكان عارفاً بمذهب أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه، وليس عنده تعصب على أحد، والمذاهبُ كلها عنده سواء.

قال ابن عساكر: وسمع نورُ الدين الحديثَ وأسمعه، وكان قد

استجيز لـه ممن سمعـه، وجمعه حرصـاً منه على فعـل الخير في نشر السنة بالأداء والتحـديث، ورجاء أن يكون ممـن حفظ على الأمة أربعين حـديثاً كما جـاء في الخبر. فمـن رآه شاهـدَ مـن جَـلال السلطنة وهيبـة المملكـة مـايبهره، فـاذا فـاوضه رأى مـن لطـافته وتـواضعـه مايحيّره. وكـان يحبّ الصالحين ويؤاخيهم ويزورهم في أماكنهم لحسن ظنه فيهم.

قال الشيـخ شهاب الديـن في المرآة: وقد صنـف له جَدّي كتـاباً سماه البحر النوري فيه أحاديث العـدل والجهاد ومواعظ وغير ذلك، وصنف نور الدين أيضاً كتابا في الجهاد وهو بـدمشق، ثم قال: فقد ذكرت مانقله علماء السير مما وقع له من سيرته، ومايستدل بها على صالح سريرته، وقد وقع لي مـآثر لم يذكـروها، ومفاخر لم يسطـروها، لم تكن لغيره مـن ملوك الجاهلية ولا الإسلام، ولارأوها في الأحلام.

وكـان مشغولاً بصيـد الغزلان، ومـازال بدر مبـادرته إلى الخيرات يتـم ولانقصان، هـذه المكارم لاقعبان، وهذه الفصـاحة لاسحبان، فمـن ذلك انه كان في عزمه ان يفتح البيت المقدس، فعمل منبراً وقبلةً بجامع حلب على اسم القدس، فتوفي إلى رحمة الله تعالى قبـل الفتوح، فلما ملك صلاح الدين بيتَ المقدس حملَ المنبرَ إليه، وأبقى القبلة بجامع حلب.

ومنها أنه كان لـه عجائز بدمشق وحلب، وكان يخيـط الكوافي ويعمل السكاكر للأبـواب وتبيعها العجائز ولايدري بهن أحد، فكان يـوماً يصوم ويفطر على أثمانها.

وحكى لي شرف الدين يعقوب ولـد المبارز المعتمد أن في دارهم سكرة من عمـل نور الديـن على خرستـان، وهي باقيـة إلى سنة خمسين وستمائة يتبركون بها.

ومنها ماحكـاه لي الشيخ أبو عمر شيخ المقادسـة رحمه الله تعالى قال:

كان نـور الدين يـزور والد الشيخ أحمد في المدرسـة الصغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للـدير، ونو الدين بنى هذه المدرسـة والمصنع والفرن، قال: فجاء يومـاً لزيارة والدي، وكـان في سقف المسجد خشبة مكسـورة فقال له: يانـور الدين، لو كشفـت السقف وجدّدته فنظـر إلى الخشبة وسكت، فلما كـان من الغـد جاء معماره ومعـه خشبة صحيحـة، فنظر إلى الخشبـة المكسـورة ومضـى، فعجـب الجماعـة، فلما جاء إلى الـزيـارة قـال بعـض الحاضرين: يانور الدين، ناكـرتنا في كشف سقف وإعادته، فقال: لاوالله، وإنما هو الشيـخُ أحمد رجل صـالح وإنما أزوره لأتنفـع به، ومـا أردتُ أن أزخـرف لـه المسجد، وانقـضَ مـاهـوصحيـح، وهذه الخشبـة يحصـل بها المقصود، فدعوني مع حسن ظني فيه، فلعلّ الله ان ينفعني ببركته.

ومنها ماحكـاه لي رجل من أهل حران لقبه الشيـخ حياة في سنة خمس وستمائة، وقد كان نيف عن التسعين سنة، قـال: لما قتُل أتابك زنكي على قلعـة جعبر وملك نـور الـدين قلعـة حلـب، تصدق وأزال المكـوس ورد المظالم، وأنا حديـث عهد بعرس، وقد ركبني دين، فقـالت لي زوجتي: قد سمعت أوصـاف نور الديـن وإحسانه إلى النـاس، فلو قصدتـه وأنهيت إليه حـالك لقضى دينـك ، قال: فخرجت مـن حران وليس معـي سوى درهمين، تـركت عنـدهـا درهماً، وتزودت بـدرهـم، وأتيـتُ الفرات وقـت القائلـة، فعبرتُ جسر منبج، وخلعت ثيابي، ونـزلت فتوضـأت، وصليت ركعتين، وإذا إلى جانبـي رجلٌ ملفـوف في عباءة، فقـال لي: يا فقير، مـن أيـن أنت؟ قلـت: أنا فقير مـديون، وقـد بلغنـي إحسانُ نـور الديـن إلى الخلق فقصدته لعلـه يقضي ديني، فقال: وأين أنت من نـور الدين، ومن يوصلـك إليه؟ كـم عليك دين؟ قلـت: خمسون ديناراً، فـأخرج يـده من العباءة وبحث في الرمـل، وأخرج منه قرطاساً وألقـاه إليّ، وقال: خذ هذا واقـض به دينـك، وارجع بـه إلى أهلك قـال: فأخـذته فعـددته وإذا بـه خمسون دينـاراً، والتفت فلـم أره، فبهت وبت في مكـاني أفكر هـل أرجع إلى حـران أو أمضي إلى حلـب، وقلـت في نفسي : فهـذه أو في بها ديني

فمن أين أتقوت؟ ثم قمت وقصدت طريق حلب، فبت بباب بزاعة، وقمت في الليل فأصبحت تحت قلعة حلب وقمت الصباح، وإذا قد فتح بابها ونزل نور الدين في أبهة عظيمة والأمراء بين يديه حتى جاء إلى الميدان.

فلما أراد أن يدخل، نظر إليّ ورمقني طويلاً، وأشار إلى خادم بين يديه فجاء إليّ وقال: قم، فأخذني وصعد بي القلعة، قال: فندمتُ على مجيئي إلى حلب، وقلت: ياليتَني قبلت من ذاك الرجل الصالح، ولعلّ نور الدين توهم أني اسماعيلي فداوي، فلما كان بعد ساعة، عاد نورُ الدين إلى القلعة، وجلس في الإيوان، ومدّ سماط عظيم ولم يمد يده إليه، وإذ فُتح باب عن يمينه وخرج منه خادم وعلى يده طبق خوص وفيه عصارة عليها رغيف، فتأملتُها من بعيد فإذا هي ثردة، فتناول منها شيئاً يسيراً وأكل الناس، وأكلتُ معهم. وانصرفَ الناس، وبقيتُ قاعداً خائفاً، فأوما إليّ، فقمت وأتيتُ بين يديه وأنا خائف أرعد، فقال: من أين أنت؟ فقلت: من حران. قال: وماالذي أقدمك؟ قلت: عليَّ دين، وبلغني إحسانُك إلى الناس، فقصدتُك لتقضي ديني، قال: وكم دينك؟ قلتُ خمسون ديناراً، قال: أفما قد أعطاك أمس صاحب العباءة على الفرات خمسين ديناراً؟ هلا رجعت إلى أهلك وأنت عليك خرقة الفقر، وإذا حصل القوت للفقير مايطلب شيئاً آخر! ثم قال: مانضيع تعبك، ورفع سجادتَه وكانت زرقاء، فإذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني صاحب العباءة، قال: فبكيت بكاءً كثيراً وقلت: لآآخذه حتى تخبرني بصاحب العباءة، فقال: هذا أمر لايلزمك، فقلت: يامولانا، أنا رجل غريب ولي حرمة، فبالله عليك أخبرْني! فقال: احلف لي أنك لاتحدّث بهذا في حياتي. فحلفتُ له، فكشف القباءَ عنه، وإذا بتلك العباءة على جسده، وقال:أنا ذاك الفقير، فقلت: بالذي أعطاكَ هذه المنزلةَ بأي شيء وصلتَ إلى هذا؟ فقال: بقوله تعالى:(إنّ الذين سبقَتْ لَهُمْ مِنّا الحُسنى)[١٤] ولكن لابد من السبب. لما التقينا بالفرنج على حارم ونصرنا

الخمـــة،
ونم أنت وإياه على باب البرج، قال: فقلتُ في نفسي: هذا الشيخ في زمن شبابه ماارتكبَ كبيرة لما ارتفع يقع فيها، والله لأقتلَنّه قبل أن يقع في معصية، قال: فعمدت إلى كاذة [١٥] لي فأصلحتُها وقلت: والله لأقتلنه قبل أن يصل إليه، وجئتُ بالمملوك إلى الخيمة فسهرت عليه ونور الدين في أعلى البرج، فلما كان وقتُ السَّحر غلبتني عيناي، فنمتُ فوقعت يدي على خدّ الغلام، واذا به مثل الجمرة وقد أخذته الحمّى، فأخذته ومضيت إلى خيمتي، فلما أصبحت أحضرت الطبيب فرآه، فقال: هذا مرضه سماوي، فلما كان وقتُ الظهر مات، فغسّلتهُ وكفنّته ودفنته، فلما كان في اليوم الثاني دعاني نو رالدين: قال: اقعُدْ فقعدت، فقال: ياسهيل(إنّ بعض الظنّ إثم) [١٦] قال: فاستحييت، قال: قد عرفتَ حالي وأنتَ ربيتني، هل عثرتَ لي على زلة؟ قلت: حاشى لله. قال: فلم حملت الكاذة وحدثتك نفسك لي بالسوء؟ ما أنا معصوم. لما رأيت الغلام وقع في قلبي منه مثل النار، فعلمت أنه من تسويل الشيطان فقلت: اشتـــــــــــره لعـــــــــــل يـــــــــــذهـــــــب
عني ماأنا فيه، فلم يذهب، فقالت لي: ماأقنع إلا بأن تحضره عندك في البرج الليلة، فأمرتك أن تحضرَه فأحضرتَه، فلما كان في تلك الليلة ماتركتني أنام، وبقيتُ أنا وإياها في حرب إلى الصباح وقت السحر، فهممت أنْ أفتح باب البرج وأصعده إلى عندي، فجاءتني اليقظةُ وكشفت رأسي، وقلت: إلهي، محمود عبدك، المجاهد في سبيلك، الذابُّ عن دين نبيِّك عليه أفضل الصلاة والسلام، الذي عمّر المدارسَ والربط، ووقف الأوقاف، وفعل مافعل تختم أعماله بمثل هذا؟ قال: فسمعت هاتفاً يقول: قد كفيناكَ يامحمود أمره، لابأس عليك! فعلمت أنه قد حدث به حادث، وأما أنت ياسهيل فجزاك الله عن الصّحبة خيراً، والله إنَّ القتل أهونُ عليّ من الوقوع في المعصية. ثم قدّم سهيلاً وأحسن إليه.

قال: وحكى لي الكمال ابن البانياسي ابن أخي الشهاب قال: حكى لي

من يتولى أوقافَ نور الدين أنه أجّر بعض بساتينه لرجل من دمشق بستمائة درهم، فأصابت البساتينَ جائحة، فجاء ذلك الرجل يتضرر، فأسقطوا عنه ثلاثمائة درهم، فلما كان بعد أيام، جاء الرجلَ ومعه ستمائة درهم وهو يبكي، فقلنا له: مالك؟ فقال: رأيتُ في المنام وقد خرج عليّ نورُ الدين من قبره وبيده جوكان وقال: أنت تكسر وقفي، وأراد ان يضربني، فقلت: أنا تائب، ورمى بالدراهم، فقلنا له: خذها، فقال: لاوالله ، أخاف ان يضربني.

قال: وحدث رجل من أهل حرّان قال: خرج يوماً نور الدين من حران قاصداً إلى الرّها، فاجتاز على نهر وفقير نائم على جانب النهر، فوقف وسلّم عليه، فرفع الفقير رأسه وقال بيده كذا، ومعناه في أيّ شيء أنت، فحرّك نور الدين اصبعاً واحدة، فحرك الفقير اصبعين، ومضى نور الدين باكياً، فقيل له: ماهذا؟ قال: أشار إليّ الفقير فقال: في أيّ شيء أنت؟ وهذا كلّه لماذا؟ فقلت: من أجل رغيف واحد، فأشار إلي بإصبعيه وقال: فأنا آكل كلّ يوم رغيفين وماأنامثلك.

وقال الفقية أبوالفتح الأشيري معيد النظامية وكان قد جمع سيرةً مختصرة لنور الدين: بلغنا عن جماعة يُعتمد على قولهم أنَّ نور الدين كان أكثر الليل يصلّي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار أنهم يقولون: ان القسيم ابن القسيم، يعنون نور الدين، له مع الله سر، فإنه مايظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا وينصر بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي الليلَ ويرفع يديه إلى الله ويدعو والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سُؤلَه، ومايردُّ يده خائبة، ويظفر علينا بهذا. فهذا كلام الكفار في حقه.

وحدّث الشيخ داود المقدسي خادم قبر سيدنا شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين، فحضر رجلٌ زاهد وفيه سمة الخير معروف بالسداد والصلاح، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البيان. وكان شخصٌ قد أودع عند أخيه أبي البيان وديعةً وقد توفي، فادعى المودع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة وطالبه بالردّ عليه، فأنكرَ هذا الرجل علمه بالوديعة، فأوجب عليه القاضي كمال الدين حكم الشرع ان يحلف أنه لاعلم له بهذه الوديعة، فحلف على ذلك، فجعل المودع يشنِّع عليه ويقول: انه حلف كاذباً، ويتكلم في عرضه، ويقول في حقه من التنمس وغيره، فحضر إلى عند الملك العادل شاكياً منه، وذاكراً سيرتَه وطريقته، ومن ذا الذي يقدر ان يقول في حقِّي هذا، ويتعرض بالتماسه من الملك العادل التقدم باحضاره والإنكار عليه مما يقول في حقه، فلما فرغ من هذا الكلام ورمى ماكان في جُعبته من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصلُه التماس الإنكار عليه، فقال له الملك العادل: أليس ان الله تعالى يقول:(وإذا خاطَبَهم الجاهِلُون قالوا سَلاماً) (١٧) يجهل عليك، ويقول في حقِّك بالجهل مالايجوز، فيجب عليك ان لاتعمل معه مثل معاملته فتكون مثله، وكأنك قابلتَ الاساءة بالاساءة، ومن حقِّك ان تقابل الاساءة بالإحسان، فقلت في نفسي: الحقُّ ماقال الملك العادل، إما قرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه، او أجراه الله على لسانه وأنطقَه به.

قال قاضي القضاة بهاء الدين بن رافع بن تميم: كان نور الدين ينفذ في كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئا يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه، وكان إذا قدم الموصل لايأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملاء.

وقال صاحب المرآة حكى لي شيخنا تاج الدين الكندي رحمه الله قال:

الله تعالى عليهم وعُدْتُ إلى حلب، التقاني شاب حسنُ الوجه طيّب الرائحة، فسلّم عليّ، وقال: يامحمود، أنت من الأبدال، قد أعطاك الله الدنيا، فاشترِ بها الآخرة، وسَلْه مهما شئت، ثم علّمني كلمات وقال: إذا طلبت أمراً فاذكرها، فقلت له: من أنتَ رحمك الله؟ قال: أنا أخوك الخضر، ثم غاب عني، فإذا عزمتُ على أمر، أو أردتُ أن أذهبَ إلى مكة أو المدينة أو أيّ بلد شئتُ لبستُ هذه العباءة وتكلمتُ بتلك الكلمات، وأغمضُ عيني وما أفتحها إلا وأنا في تلك البقعة.

قال: حكى لي نجم الدين الحسنُ بن سلام، أحدُ عدول دمشق وأعيانها، وكان صديقنا قال: لما ملك الأشرفُ بن العادل دمشق وعمر مسجد أبي الدرداء في القلعة، دخلتُ عليه يوماً وهو فيه، فقال لي: يانجم الدين، كيف ترى هذا المسجد وقد عمّرتهُ وأفردتُهُ عن الدور، وماصلّى فيه أحد منذ زمن أبي الدرداء إلى الآن؟ قال: فقلت له: الله الله يامولانا، مازالَ نورُ الدين منذ ملك دمشقَ يصلّي فيه الصلوات الخمس، قال: من أين لك هذا؟ قلت: حدّثني والدي أنه لما نزلتِ الفرنج على دمياط بعد وفاة أسد الدين وضايقوها، أشرفتْ على الأخذ، فأقام نور الدين عشرين يوماً صائماً لايُفطر إلا على الماء، فضعف وكاد يتلف، وكان مُهاباً فلم يتجاسرْ أحد أن يخاطبه في ذلك، وكان له إمام يقال له يحيى ضرير يصلّي به في هذا المسجد، وكان يقرأ عليه القرآن وله عنده حُرمة. فاجتمع إليه خواصُّ نور الدين وخَدَمه، وقالوا: قد خِفْنا على السلطان، ونحن من هيبته مانقابله، وأنت تدل عليه، ونسألك أن تسأله أن يتناولَ مايحفظُ به قُوتَّه، قال: نعم إذا صليّتُ بعد غداة غد الفجر سألته. قال: فلما كان في تلك الليلة رأى الشيخُ يحيى في المنام رسول الله ﷺ يقول له: يايحيى، بشّر نورَ الدين محمود برحيل الفرنج عن دمياط، قال: فقلت: يارسول الله، ربما لايصدَّقُني، وأريدُ أمارة، قال: قل له بعلامة يوم حارِم، قال: فانتبه يحيى وهو ذاهبُ العقل، فلما صلّى نور الدين خلفه الفجرَ وسلّم وشرع يدعو، فهابه أن يتحدَّث معه، فقال له

نور الدين: يايحيى، قال :لبيك يامولانا، قال: تُحدِّثني أو أحدِّثك؟ فارتعد يحيى وخرس، فقال: له: أنا أُحدِّثك: رأيتَ رسول الله ﷺ في نوم هذه الليلة وقال لك كذا وكذا، فقال: نعم، فبالله يامولانا مامعنى قوله ﷺ بعلامة يوم حارم. فقال نور الدين: لما التقى الصّفان خفتُ على الاسلام لأني رأيتُ من كثرة الفرنج ماهالني، فانفردت عن العسكر، ونزلت فمرَّغْتُ وجهي في التراب، فقلتُ:ياسيِّدي، من محمود في الفئتين، الدين دينك، والجند جندك، وهذا اليوم فافعل مايليق بكرمك، قال: فنصرنا الله عليهم.

قال: وحدثني شهاب الدين ابن البانياسي عم كمال الدين ابن البانياسي وكان على ديوان جامع دمشق، أول ماقدمت الشام اجتمعتُ به في درب الشعارين في قاعة الوزير صفيِّ الدين بن شكر وزير العادل ابن أيوب، وكان هناك جماعة، فاشتغل الوزيرُ بالحديث معهم، وكان الشّهاب إلى جانبي، فتذاكرنا نور الدين، فقال: كان أبي يخدم نورَ الدين في أسفاره ومقامه على ديوانه، قال: حكى لي وأنا صغير، قال: خرج نورُ الدين من دمشق يتصيد في أرض قطنا ويعفور وأنا معه، فبينما هو ذاتَ يوم قد ركب من المخيم ليذهب إلى الصيد، إذا برجل أعجمي قد أقبل من ناحية دمشق ومعه خيل ومماليك، وكان تاجراً، فلما وصل إلى نور الدين، ترجَّلَ وقبل الأرض، فرحب به نور الدين وكان صديقه، قال: أين الأرمغان؟ قال: حاضر، ومضى نور الدين ، فلما عاد استدعاه، فاحضر قماشاً وعدةَ مماليك فيهم مملوكٌ مستحسن جداً،فقبل المملوكَ وردَّ الباقي، وكان له خادمٌ أبيض اسمه سهيل قد رباه، فقال له: ياسهيل، خذ هذا المملوكَ وادفَعْ إلى التاجر خمسمائة دينار وخلعةً وبغلة. قال أبو الشهاب: فحدثني سهيل، قال: لما قال كذا، قلت في نفسي: إنا لله وإنا إليه راجعون، هذا مااشترى مملوكاً قط يساوي خمسين ديناراً يشتري مملوكاً بخمسمائة دينار، قال: ففعلت ماأمرني فتركني اياماً وقال: ياسهيل، احضر المملوك مع المماليك كل يوم يقف في الخدمة، قال: فأحضرته، فلما كان بعد أيام قال لي: أحضره وقت العشاء الآخرة الى

لم يبتسم نور الدين إلا نادرا، قال: وحكى لي جماعة من شيوخنا المحدثين أنهم قرأوا عليه حديث التبسم وكان يرويه، فقالوا: تبسم، فقال: لاوالله لاأبتسم من غير عجب.

ذكر ألقابه التي جاءت من بغداد مع الخلعة ويخطب له بها على المنابر

اللهم وأصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد، الورع المجاهد، المرابط المثاغر نور الدين وعدته، ركن الاسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضي الامامة وأثيرها، فخر الملة ومجيرها، شمس المعالي وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين، منصف المظلوم من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين.

ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته، وقال: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي.

وروي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني يأمره بأن يكتب له صورة مايدعى له على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب، ولئلا يقول ماليس فيه فكتب ابن القيسراني كلاما دعا له فيه، ثم قال: وأرى حين يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين، فإن هذا مايدخله كذب على نور الدين، فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ماصورته: مقصودي أن لايكذب على المنبر، أنا بخلاف مايقال، أفرح بما لاأعمل، قلة عقل، عظيم الذي كتبت به جيد، اكتب به نسخا إلى البلاد.

وكتب في آخر الرقعة ثم يبدأ بالدعاء: اللهم أره الحق حقا، اللهم

أسعده، اللهم أنصره، اللهم وفقه، من هذا الجنس، وكان يقول لأصحابه: حرام على كل من صحبني ولايرفع إلي قصة مظلوم لايستطيع الوصول إلي.

قال ابن الأثير: حكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن السكري وكان خصيصا بخدمة نور الدين قال: كنت مع نور الدين يوما في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار الظل وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه ،ثم قال لي: أتدري لأي شيء أجري فرسي والتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهت مانحن فيه بالدنيا تهرب ممن يطلبها، وتطلب من هرب منها، فرضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا، وأنشد صاحب الروضتين في هذا المعنى:

مثل الرزق الذي تطلبه
مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لاتدركه متبعا
فإذا وليت عنه تبعك

وذكر عبد الرحمن بن نصر الشيزري في كتابه المسمى المنهج المسلوك في سياسة الملوك، قال: حدثني الفقيه أبو طاهر ابراهيم بن الحسين بن الحصني الحموي قال: كنت عند الملك العادل محمود بن زنكي في دار العدل بدمشق، وقد أخرج جريدة خراج الأملاك فجعل ينظر فيها، فلما انتهى إلى ذكر خراج معرة النعمان قال: إني عزمت على انتزاع أملاك أهل المعرة من أيدي أهلها، فقد رفع إلي أهل الخبر من الثقات أن جميع أهل المعرة يتقارضون الشهادة، فيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى ملك حتى يشهد معه ذاك في دعوى أخرى، وان الملك الذي بأيديهم إنما حصل لهم بهذا الطريق، قال: فقلت له: أيها الملك، إن الله أوجب عليك العدل في رعيتك، فانظر واكشف، وتوقف في الأمور إذا رفعت اليك، فإن أهل المعرة خلق كثير، كيف تستحل تواطؤهم على شهادة الزور وانتزاع

الأملاك من أربابها بمجرد هذا القول؟ لايجوز، قال: فأطرق ساعة ثم قال: إني أمسكها عليهم، ثم أكشف عنها بعد ذلك، والتفت إلى كاتبه وقال: اكتب إلى الوالي بالمعرة ليمسك جميع الملك الذي في أيدي أهله حتى تستدعي البينة في ذلك، فكتبه ووضعه بين يديه ليعلم عليه، وإذا صبي على شاطىء بردى يغني ويقول:

اعدلوا مادام أمركم ... نافذا في النفع والضرر
واحفظوا أيام دولتكم ... إنكم منها على خطر
إنما الدنيا وزينتها ... طيب مايبقى من الأثر

قال: فلما سمع الملك العادل ذلك تغير لونه، وهملت عيناه بالدموع، ثم نظر فقال:(فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله)[١٨] ثم استدار نحو القبلة وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك مما عزمت عليه الآن، ثم تناول الكتاب فمزقه وجعل يستغفر الله جميع ذلك اليوم.

وحكى الشيخ جمال الدين المطري رحمه الله في تاريخ المدينة الشريفة له على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، قال: وصل السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر رحمه الله في سنة سبع وخمسين وخمسماية إلى المدينة الشريفة لرؤيا رآها ذكرها بعض الناس، وسمعتها من الفقيه علم الدين يعقوب ابن أبي بكر المحترق أبوه ليلة حريق المسجد الشريف عمن حدثه عن أكابر من أدرك: أن السلطان محمودا المذكور رأى النبيﷺ ثلاث مرات في ليلة واحدة وهو يقول له في كل مرة: يامحمود، أبعدني عن هذين الشخصين، يشير إلى أشقرين تجاهه، فاستحضر وزيره قبل الصبح، فذكر له ذلك، فقال: هذا أمر قد حدث في مدينة النبيﷺ ليس له غيرك، فتجهز وخرج على عجل

بمقدار ألف راحلة ومايتبعها من خيل وغير ذلك حتى دخل المدينة على غفلة من أهلها والوزير معه، فزار وجلس في المسجد لايدري مايصنع فقال له الوزير: تعرف الشخصين إذا رأيتهما؟ قال: نعم، فطلب الناس عامه للصدقة، وفرق عليهم ذهبا كثيرا وفضة، وقال: لايبقى أحد بالمدينة إلا جاء، فلم يبق إلا رجلان مجاوران من أهل الأندلس نازلان في الناحية التي هي قبلة حجرة النبيﷺ من خارج دار آل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه التي تعرف اليوم بدار العشرة، وطلبهما للصدقة فامتنعا وقالا: نحن على كفاية مانقبل شيئا، فجد في طلبهما، فجيء بهما، فلما رآهما قال للوزير: هما هذان، فسألهما عن حالهما وماجاء بهما، فقالا: لمجاورة النبيﷺ فقال: أصدقاني، وتكرر السؤال حتى أفضى إلى معاقبتهما، فأقرا أنهما من النصارى وأنهما توصلا لكي ينقلا من في هذه الحجرة الشريفة باتفاق من ملوكهم، فوجدهما قد حفرا نقبا تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلي وهما قاصدان إلى جهة الحجرة الشريفة، ويجعلان التراب في بئر عندهما في البيت الذي هما فيه، فضرب أعناقهما عند الشباك الذي في شرقي حجرة النبيﷺ خارج المسجد، ثم أحرقا بالنار آخر النهار، وركب متوجها إلى الشام، فصاح به من كان نازلا خارج السور واستغاثوا وطلبوا أن يبني عليهم سورا يحفظ أبناءهم وماشيتهم، فأمر ببناء هذا السور المجدد اليوم فبني في سنة ثمان وخمسين، وكتب اسمه على باب البقيع فهو باق إلى اليوم، رحمه الله وقدس روحه.

الباب السادس

في نبذة مما مدح به من الأشعار الفائقة والقصائد البديعة الرائقة

وكان رحمه الله قليل الابتهاج بالشعر ويجيز عليه، وقد مدح بأشعار كثيرة، وأوصافه فوق مامدح به، وكان في أول دولته شاعرا زمانهما أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني، وأبو الحسن أحمد بن منير، ولهما فيه مدائح، وله إليهما منائح، فمن ذلك قول ابن القيسراني فيه:

ذو الجهادين من عدو ونفس
فهو طول الحياة في هيجاء
أيها المالك الذي ألزم النا
س سلوك المحجة البيضاء
قد فضحت الملوك بالعدل لما
سرت في الناس سيرة الخلفاء
قاسما ماملكت في الناس حتى
لقسمت التقى على الأتقياء
شيم الصالحين في جتر الترك
وكم من سكينة في قباء
أنت حينا تقاس بالأسد الورد
وحينا تعد في الأولياء
صاغك الله من صميم المعالي
حيث لامشبه سوى الآلاء
وكأن القباء منك لماضم
من الطهر مسجد بقباء
أنت إلا تكن نبيا فما فا
تك إلا خلائق الأنبياء
رأفة في شهامة، وعفاف
في اقتدار، وسطوة في حياء

obeikandi.com

وجمال ممنطـــــــــق بجـــــــــلال
وكمال متـــــــــوج ببهـــــــــاء
وكـــأن السيـــوف مـــن عـــزمـــك الماضي
أفـــادت مـــا عنـــدهـــا مـــن مضـــاء
ولعمـــري لـــو استطـــاع فـــداك الـــ
ـــــقوم بـــالأمهـــات والآبـــاء

وله أيضاً فيه:

لله عـــزمـــك أي سيـــف وغـــى
طبعـــت مضـــاربـــه على القهـــر
مـــا زفـــت الحرب العـــوان بـــه
إلا انجلـــت عـــن معقـــل بكـــر
هـــل وجـــه نـــور الـــديـــن غير سنـــا
سطـــع الـــدجى عـــن خجلـــة البـــدر
ملـــك مهـــابتـــه طليعتـــه
أبـــداً أمـــام جيـــوشـــه تسري
كـــم فـــك كيـــدهـــم بصـــاعقـــة
شغلـــت قلـــوبهم عـــن الفكـــر
تـــركـــت حصـــونهم سجـــونهم
فـــالقـــوم قبـــل الأسر في أسر
عصـــم العـــواصـــم فهـــي ضـــاحكـــة
تجلـــو الظبـــى ثغـــراً على ثغـــر
وإذا سرايـــا خيلـــه قفلـــت
نهضـــت سرايـــا الخوف والـــذعـــر
ورمـــى القـــلاع بمثـــل جنـــدلها
حتـــى استكـــان الصخـــر بـــالصخـــر
يـــا ســـائلي عـــن نهج سيرتـــه
هـــل غير مفـــرق هـــامـــه الفجـــر

عـــدل حقيـــق مـــن تـــأملـــه
أن يحيـي العمـريـن بـالـذكـر
وشهـــامـــة في الله خـــالصـــة
عقـــدت عليـــه تمائم الأجـــر
ونـــدى يـــد مـــاضر واردهـــا
ألا يبيـــت مجاور البحـــر
هـــذا المخيـــم في ذرا حلـــب
وثنـــاؤه أبـــدا على ظهـــر

وله أيضا:
ملـــك أشبـــه الملائك فضـــلا
وشبيـــه بها لـــك الأمـــر جنـــده
عـــم إحســـانـــه فـــأصبـــح يتلى
شكـــره في الـــورى ويـــدرس حمده
فسقـــى الله ذكـــره أينما حـــل
ولافـــاتـــه مـــن النصر رفـــده

وله أيضا فيه:
ســـام الشـــآم ويـــا لها مـــن صفقـــة
لـــولاه مـــا عنـــت على يـــد ســـائم
تلـــك التـــي جمحـــت على مـــن راضهـــا
ودعـــوت فـــانقـــادت بغير شكـــائم
وإذا السعـــادة ســـاعـــدت في دولـــة
قـــام الـــزمـــان لها مقـــام الخادم
حصـــن بـــلادك هيبـــة لارهبـــة
فـــالـــدرع في عـــدد الشجـــاع الحازم
هيهـــات يطمـــع في محلـــك طـــامـــع
طـــال البنـــاء على يمين الهادم
كلفـــت همتـــك السمـــو فكلفـــت
وكـــأنمـــا هـــي دعـــوة مـــن ظـــالـــم

وأظـــــن أن النـــــاس لما لم يـــــروا
عـــدلا لعـــدلـك أرجفـــوا بـــالقـــائم

ولابن المنير فيه:
أيـــا ملـــك الـــدنيـــا الحلاحـــل والـــذي
لـــــه الأرض دار والبريـــــة أعبـــــد
وليســـت بـــدعـــوى لا يقـــوم دليلهـــا
ولكنـــه الحق الـــذي ليـــس يجحـــد
أخـــو غـــزوات كـــالعقـــود تنـــاسقـــت
تحل بـــأجيـــاد الجيـــاد وتعقـــد
لســـان بـــذكـــر الله يكســـو نهاره
وجفـــن في الـــدجـــى ليـــس يـــرقـــد
وبـــذل وعـــدل أغـــرقـــا وتـــألقـــا
فـــلا الـــورد مثمـــود[١٩] ولا الباب مؤصد
قـــوام سماوي، وحـــزم مســـدد
ورأي شهـــابي، وعـــز مـــؤيـــد

obeikandl.com